الموعد

obeikan.com

الكتاب: الموعد
المؤلف: السيد ماضي حسين
الطبعة: الأولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٧٦٢٤
الترقيم الدولي: ٨ – ٠٤ – ٦٤٤٥ – ٩٧٧ - ٩٧٨
إشراف عام: آية عفيفي
مراجعة لغوية: صهيب إبراهيم
غلاف: NileDesign.com

كامل حقوق النشر والطبع محفوظة
لدار الابداع للنشر والتوزيع
موقع دار الكتب الإلكتروني
العنوان : مدينة نصر – ٤٠ شارع أبو داود الظاهري
هاتف: ٠١٠٠٢٠٥٢٢٦٦
E-mail: info@daralkotob.com
www. daralkotob.com

obeikan.com

الموعد

وقصص أخرى

تأليف: د. السيد ماضي حسين

موقع دار الكتب

obeikan.com

obeikan.com

إلى روح أبي و أمي ....

obeikan.com

obeikan.com

"الموعد"

بمجرد وقوفي على باب المقهى -الذي عثرت عليه بعد اللف والدوران تحت الشمس الحارقة- جوبهت بضوضاء شديدة. تَلَفَّتُّ يمينًا وشمالاً بحثًا عن مكان خالٍ في هذا المقهى المكتظ. لمحت طاولة خالية بالداخل، رغم قربها من (النَّصْبَة)؛ وبُعدها عن أقرب (مروحة)؛ ذهبت إليها ركضًا ، قبل أن يحتلها متربص آخر. وضعت فوقها (ساندوتش الطعمية) الذي اشتريته حال نزولي من القطار وقد بَلَّلَ العرق -الذي نَزَّ من يدي- ورقة الجريدة الملفوف بها؛ وارتميت على الكرسي كحجر سقط من عالٍ.. منتظر (الجرسون)، ارتكزت على الطاولة بكوعي، وأَسْنَدْتُ رأسي بكفي، وأخذت أجول بنظراتي بدون اكتراث.. رجال وأطفال، عليهم ملابس مليئة ببقع الزيت والشحم . أربعة نساء -أو خمسة- أعمارهن متقاربة، يرتدين (مرايل) بنفسجية اللون؛ أعْلَنَّ عن وجودهن من طاولة يتزاحمن حولها هناك في وسط المقهى ثم

فضَضتُّ لفافتي، وأكلت دون استساغة. كنت أزدرد اللقيمات بصعوبة.. فوجئت بكوب ماء بارد -يتكاثف الماء على جدرانه الخارجية- وضعه (الجرسون) بين يدَيَّ، ثم صاح بصوت مرتفع جدًا:

- "بالهنااا والشفااا يابيييه".

فتح الماء البارد شهيتي، وعندما انتهي (السندوتش) -للأسف- أطلت المضغ متلذذا باللقمة الأخيرة؛ ثم شربت جرعات الماء المتبقية حتى أشعر ببعض الامتلاء. وبمجرد وضع الكوب الفارغ على الطاولة . فوجئت (بالجرسون) -الذي يبدو أنه كان يراقبني- واقفا علي رأسي. انحنى انحناءة مسرحية؛ وقال بكلامه الممطوط:

_ "أيييوه يابيييه، تششرب إيييه؟".

_ "شاي، لو سمحت". اتجه نحو (النَّصْبَة) صائحًا:

_ "وااااحد شاااااي وصاااالّااحُووو".

وأنا أتتبعه بنظراتي؛ رأيت ساعة الحائط المعلقة فوق رأس (المعلم) الجالس على يسار (النَّصْبَة) تشير إلى الواحدة والنصف. شعرت بتسارع دقات قلبي؛ وحدثت نفسي....

obeikan.com

_ "باقي ساعة ونص على ميعاد حبيبتي، المسافة من هنا للكورنيش تاخُدْ حوالي ربع ساعة؛ عشان تكون في انتظارها مفروض تتحرك من هنا بعد نص ساعة بالكتير؛ أنا في حلم ولَّا في علم. أخيرا هقابل سامية، يا فرحتي"..

وضع (الجرسون) أمامي صينية ألومنيوم (مضَعْضَعَة) عليها كوب به أكثر قليلاً من نصفه شايًا؛ بقاعه طبقة سميكة من (التِّفْل)؛ مغطًّى بغطاء بلاستيكي (مجَرْبَحْ)؛ لونه خليط من الرمادي والأصفر والأبيض، وكوب آخر مملوء إلي حافته بالماء، وبين الكوبين ملعقة ألومونيوم ملتوية الطرف. تناولت الملعقة وقلَّبت السكر -المختلط (بالتِّفْل)- إلى آخر ذرة ليخفف بعضًا من المرارة المتوقعة. ورحت أحتسي الشاي في رشفات متباعدة بتلذذ...

هَبَطْتُ من قطار (المرج) في محطة (منشية الصدر) -صباح اليوم- قاصدًا (كلية العلوم)؛ التي تبعد عن المحطة بمسافة نقطعها في عشرة دقائق بالخطوة السريعة. اخترقت (عزبة القرود)، ثم محطة (مترو مصر الجديدة) حيث يبدو الناس وكأنهم من كوكب آخر، التطلع إليهم يسرُّ القلب؛ يزيل القذى الذي يكون قد ران على عينيَّ من رؤيتي لركاب القطار ولسكان

(عزبة القرود).. اخترقت محطة (المترو) مهرولاً، مجتازا مجموعة من طلبة وطالبات (مصر الجديدة)، كانوا هابطين لتوّهم من (المترو)، يمشون على راحتهم، يتبادلون النُّكات، وفي بعض الأحيان يتبادلون الضربات -الرقيقة- على الأكتاف والظهور. تجاوزتُهم دون أن أعيرهم أي اهتمام؛ فالساعة قد أشرفت علي الثامنة إلا ربعًا، والمحاضرة تبدأ في الثامنة؛ والأستاذ لا يسمح لأي طالب بدخول المدرج بعده، فلطالما طردنا نحن طلبة الأرياف، ولم يكن يلقي بالاً لاستعطافاتنا في أول الأمر؛ ولكنه كان يتسامح في النهاية عن تأخرنا لدقائق معدودات؛ بشرط أن يكون الدخول من الباب الخلفي. حدث ذلك التحول بعد الحادثة التي كنت بطلها في أول محاضرة له بعد العودة من عطلة نصف العام؛ فحينما كان ملتفتًا إلى السبورة منهمكًا في كتابة بعض القوانين والتعريفات، أحدث الطلبة هرجًا شديدًا، ولكنه ظل مستمرًا في الكتابة. وبعدما (فاض به الكيل) -على ما يبدو- التفتَ إلي الطلبة وقد احتقن وجهه؛ ونظر إلى الصفوف الخلفية، وأشار بإصبعه قائلاً:

_ "انت.. تعال".. لم يتحرك أحد.. قال ومازال إصبعه في نفس الاتجاه؛ وقد ازداد وجهه احتقانًا:

_ "انت.. انت، أبو قميص أبيض هناك".. لكزني الطالب الجالس بجواري بكوعه قائلاً:

_ "روحلو، بيقصدك".. نزل كلام الطالب على أذني كالصاعقة.. حاولت الدفاع عن نفسي.. لم استطع تحريك لساني.. بعد معاناة شديدة؛ قلت متلعثمًا:

_ "أنا.. مااامااا..اتكلمم..تش.. يا دكتور".. انفجر صوت الأستاذ هادرًا:

_ "بقولك تعال".. فوجئت بالطالبين اللذين يحجزاني عن الطرقة، يقفان ليفسحا لي الطريق؛ فلم أجد بُدًا عن الامتثال. نزلت أكاد أنكفئ على وجهي؛ ترتعش ساقيَّ؛ تسد حلقي غصة كبيرة؛ يدور بخلدي ما سيترتب على هذا الموقف العصيب؛ وحدثت نفسي:

_ "يمكن يحُطِّني في دماغه". كنت في منتهى الخجل من (سامية)، وأنا في هذا الموقف، الْتَفَتُّ إليها عندما مررت بالصف الذي تجلس فيه. رأيتها مائلة برأسها تنظر في مذكراتها.. وقفت أمام الأستاذ مطأطئًا رأسي أنتظر قدري.. قال وهو يضغط علي الحروف بشدة:

_ "اسمك إيه يا ولد".

_ "محمد ابرا..".

_ "منين".

_ "من القليوبية.. يا دُكْتُر".

_ "واحد غيرك كان يبوس إيده وش وضهر؛ انت مش حاسس بالنعمة اللي انت فيها".

_ "يا دكتر.. أنا.. مظلوم؛ أنا.. دايمًا في حالي؛ حتى.. اسأل سيادتك.. الطلبة".

علت الضحكات في أنحاء المدرج؛ وسمعت همهمة من الصفوف الأمامية:

_"فعلا؛ هوَّ فاضي؟ دا الكُجِّيتْ يا دُكْتُر"..

التفت إليهم أستعطفهم بنظرات منكسرة؛ لأحنن قلوبهم؛ ولسان حالي يقول:

_"هوَّ ده وقته يا غجر؟"..

obeikan.com

وكانت (سامية) ما تزال واضعة وجهها في مذكراتها؛ ذاهلة عَمَّا يجري. ازداد هرج الطلبة. وتذكرت بعضًا من تعليقاتهم التي تسمم بدني:

_"أيْوا يا سيدي؛ أيْوا يا والدي؛ أيْوا يا كُجِّيتْ؛ طبعًا معيد.. معييد".

_"بيرسم نفسه من بدري".

_ "الِّلي عطاك يعطينا".

_"متتعبش نفسك يا حج؛ نَقْبَك على شونة؛ ولاد الأساتذة قاعدين لها ".

جعلتني العزلة التي فرضوها عليّ منطويًا خجلاً. أتعلّل -بيني وبين نفسي- بانكبابي علي الدراسة، وأنه ليس لَدَيَّ وقت لأضيعه مع هذا العبث الصبياني، بينما أحقد عليهم من كل قلبي، فهم يصادقون الفتيات اللائي لا أستطيع الاقتراب منهن، فهل يعقل أن ينظرن إلى إنسان مثلي؟! ملابسه لا تزيد عن (بنطالونًا) وقميصًا صيفًا؛ فوقه (بلوفر) شتاءً؛ وإن كان قلبي يخفق؛ كلما رأيت (سامية). ولأني أعلم أنها تبعد عني بُعد السماء عن الأرض؛

قنعت بأن أُمَلِّي عيني منها من بعيد.. كنت ذاهبًا إلى أستاذ الكيمياء العضوية -منذ عدة شهور- ليشرح لي جزئية استعصت على فهمي في محاضرته الذي كان قد انتهى منها تَوَّاً. فوجئت بها أمامي تسير في (الطرقة) التي تفضي إلى مكاتب الأساتذة. كان صوت وقْعُ أقدامها على البلاط يَرِن في الطُّرْقَة شبه الخالية. خفق قلبي بشدة؛ وحدثت نفسي منتشيًا:

_"أول مرة أقترب من (سامية) بهذه الدرجة". ازداد خفقان قلبي. وارتعشت ركبتيَّ. وكدت أصاب بالدوار. وفجأة سقط من يدها (كشكول). وكنت قد اقتربت منها؛ تسبقني بخطوة واحدة. أخذتني المفاجأة؛ هل أمشي في حالي؟ هل ألتقط الكشكول من الأرض لأعطيه لها؟ مغتنمًا هذه الفرصة السعيدة، وبدون أن أفكر كثيرًا وبسرعة البرق انحنيت على الأرض لألتقط الكشكول. وكانت قد هَمَّتْ بالانحناء أيضًا. وقبل أن تصل يدها إليه، كنت قد وضعته في يدها؛ فأخذته مني وقالت بصوت خفيض:

_ "متشكرة"..

خفق قلبي بشدة فقد هُيِّئَ لي أنه سيسقط من مكانه. وكاد أن يغمي عليَّ؛ ولكني تمالكت نفسي وقلت متلعثمًا:

_"العع.. ففو"..

انتبهت منتفضًا عندما جذبني الأستاذ من ياقة قميصي. وقال وهو يهزني بشدة:

_"ساكت ليه؛ لسانك اتقطع؛ العيب على عبد الناصر اللي مجانية التعليم بتاعته جابتك هنا؛ ولبِّسِتَكْ القميص ده"..

نزل كلامه المباغت علي أذني كطلقات الرصاص. وقفت مبهوتًا أنظر إلى الأرض في صمت، يسحقني القهر. واغرورقت عَيْنَيَّ بالدموع التي فاضت وانحدرت إلى أسفل متساقطة علي حذائي.

وساد المدرج -الذي كان منذ لحظات (كسوق التلات)- سكون تام.. رفع الأستاذ رأسي- حيث كنت ما أزال مطأطئها- بسبابة يده اليمني من ذقني قائلاً:

_"بُصِّلِي هنا؛ لما أكون باتكلم تبقي تبُصِّلِي؛ فاهم؟".. وعندما تلاقت نظراتنا؛ قال بصوت هادئ قريبًا إلى الهمس:

_"موش عيب راجل زيك يعيَّط ".. وتابع بصوت مرتفع:

_"طيِّب؛ بُصْ علي السبورة واقرأ لَمَّا أشوفك كنت متابع ولَّا لأ".

قرأت امتثالا لأمره. لم يدعني أكمل. وربَت علي كتفي قائلاً:

_"روح مكانك؛ أنا آسف؛ ظلمتك"...

جاء الأستاذ إلى المختبر -يوم السبت الفائت- حيث كان الاختبار العملي النهائي لمادته. صافح (المعيد) -المراقب- الذي كان واقفًا أمام السبورة ثم صافح زميله الذي جاءه من آخر المعمل مهرولاً. وراح يمرُّ بين (البِنْشَاتْ). وعندما مرَّ بي؛ حيث كنت قريبًا من السبورة؛ ربت على ظهري؛ قائلاً:

_ "عامل إيه يا محمد؟؛ كويس؟ شد حيلك يا بطل، ده امتحان البكالوريوس".. واستأنف مروره؛ عاقدا يداه خلف ظهره؛ ووراءه المدرسان المساعدان. وبعد أن أكمل المرور على كل (البِنْشَاتْ)؛ قال بصوت جهوري:

_ "أيوا يا أولاد؛ فيه حاجة موش واضحة في الأسئلة؟".

_ "لا يا دكتر".

_ "فيه حد عنده أي نقص في الكيماويات أو في الزجاجيات؟".

_ "لا يا دكتر؛ ألف شكر"..

وعندما كان راجعا؛ ربت علي ظهري مجددا وقال:

_ "شد حيلك يا محمد؛ ربنا معاك يا بني".

_ "ألف شكر يا دكتر".. وقال وهو يَهِمُّ بالمغادرة:

_"طيب أنا عايزكم في ميعاد المحاضرة السبت الجاي؛ عشان نراجع المقرر؛ مَحَدِّشْ يتأخر"...

عملت لمدة ثلاث سنوات -قبل أن أعيد الثانوية العامة- في وظيفة (مساعد معمل) بإحدى المصالح الحكومية بالقاهرة؛ حيث يعمل عمي كاتبا بـ(الأرشيف). وكنت قد تحصَّلت على مجموع متدني لإصابتي بالحمّى في أيام الامتحان؛ ولذا فقد كان لابد من الإعادة. ولأنها (أقدارنا كتبت علينا)؛ فقد كان عمي يزورنا في أحد الأيام -عقب ظهور النتيجة- ولمَّا علم برغبتي في الإعادة؛ قال لأبي:

_"يعيد إيه يا حج؛ هو انت حمل كده؛ أنا أخدو معايا في المصلحة؛ آهو يساعدك بالقرشين اللي هياخدهم في تربية اخواته"..

استسلمت مرغمًا عندما رأيت أبي يقبل مشورته بدون مناقشة. ولكني لم أحتمل فكرة أن تكون هذه نهايتي (مرمطونًا) -يسمونه في أوراقهم الرسمية (مساعد معمل)- أأتمر بأوامر رؤسائي و(رئيساتي) خريجي و(خريجات) الجامعة. أنا الذي كان أهل القرية يلقبونني ب(الدكتور)؛ ينتهي بي المطاف إلى إنسان بائس يتجول في أحشاء هذه المصلحة الكئيبة؛ مجرد (مساعد معمل) لا يلتفت إليه أحد. أدخلها صباحًا مكتئبًا، وأخرج منها آخر النهار فرحًا، كأنها سجنًا. قررت إعادة الثانوية. لكني وجدت الظروف التي منعتني من الإعادة عقب ظهور النتيجة البائسة؛ مازالت موجودة؛ فتملكني اليأس.. انكببت علي قراءة كتب الأدب -هوايتي المفضلة- وحدث في أحد أيام العمل المتشابهة -من بداية السنة الثالثة- أن ضبطني رئيسي عندما كنت مستغرقا في قراءة رواية مشوقة. اضطربت اضطرابًا شديدًا؛ لتَيَقُّني بعدم قدرتي علي تبرير سلوكي المُعْوَجّ بتركي العمل وانشغالي في قراءة القصص والروايات. وكنت قد وضعت الكتاب في (الدرج) بمجرد سماعي صوت وقع أقدامه. وانكمشت على الكرسي منكسًا رأسي مصوبًا نظراتي إلى المكتب؛ أحدث نفسي:

_"أكيد ده هيْأثَّر على تقريري السنوي".. انتفضت عندما فوجئت بيده تَنْحَطُّ على ظهري؛ ولكنه بادرني - قبل أن أنهار- قائلاً:

_"خايف ليه يا محمد؛ ربنا يعينك يا بني، أنا أسمع إنك كنت متفوق لولا الظروف اللي حصلت لك؛ انت عندك وقت؛ استغله؛ ولك عليّ أديلك شغل بسيط"..

واصلت المذاكرة بعزم ليلاً ونهارًا. مغتنمًا الفرصة التي أتاحها لي رئيسي الطيب.. وأعلنت النتيجة، وحصلت على مجموعًا أهَّلَنِي للالتحاق بـ(كلية العلوم). وعندما استلمت خطاب مكتب التنسيق؛ ذهبت إلى أبي وأخبرته وأنا أكاد أطير من الفرح؛ ولكنه قال بصوت خافت، سمعته بصعوبة:

_"والكلية دي هتسيب لها الشغل؟".

_"أيوا يابا دي كلية عملية لازم أتفرغ لها".

_"يا بني يا حبيبي؛ روح كلية انتساب، عشان متضَيَّعْشِي الشغل؛ إحنا في عرض الماهية اللي رَتَّبْنَا أمورنا عليها، هنعمل إيه من غيرها"..

بعد أن (خَلَّصَ) كلامه؛ رفعت رأسي؛ التي كنت أطأطئها. هالني أن عيناه مليئتان بالدموع . وكان ينظر إلى أمي القابعة في

ركن الحجرة، جالسة القرفصاء؛ تدفن رأسها بين ركبتيها. قلت ودموعي تَسِحُّ رغمًا عَنِّي:

_"معلهش يابا استحملني أربع سنين؛ هيمُرُّوا بسرعة، أنا هأقتل نفسي في المذاكرة ليل نهار"..

اتجه ناحية الباب؛ وقال بعد عدة خطوات:

_ "زمان الميَّة غرَّقَت الدُّرَة"...

مَرَّ شريط الأحداث بمخيلتي بعد هبوطي من القطار وأنا أحث الخُطى حتى أحضر محاضرة المراجعة - المهمة- من أولها. وعندما كنت على بعد حوالي مئة متر من شجرة (التين البِنْغَالِي) العتيقة الرابضة أمام بوابة الكلية الرئيسية -بعدما تجاوزت باب الجامعة الجانبي الأقرب للكلية من ناحية (عزبة القرود)- سمعت ضحكات نسائية صاخبة؛ تبينت أنها صادرة من ثلاثة طالبات- زميلات- واقفات تحتها. استهجنت ضحكاتهن الزائدة عن حدها في نظري وحدثت نفسي:

_"مش عارف ليه (سامية) بتقعد معاهم في المدرج؛ وهِيَّا المختلفة عنهم في كل شيء؛ مش يمكن هُمَّا اللي فارضين نفسهم عليها؟"..

ازدادت أصوات ضحكاتهن ارتفاعًا باقترابي. ولَمَّا صرت علي بعد خطوات قليلة؛ رأيت إحداهن ترش علي زميلتها -وعلى نفسها- رزازًا من قنينة صغيرة (يبدو أنه عطرًا). تعجبت لذلك؛ فلا يُعْرَفُ عندنا في القرية ما يُرَش بهذه الطريقة إلَّا (البيروسول) الذي نرشه من علبة صفيح لقتل البعوض الذي يمتص دماءنا طيلة أيام السنة؛ ماعدا بعض أيام الشتاء الشديدة البرودة. وعندما حاذيتهن -وكان مدخل الكلية على بعد خطوات- توقفت ضحكاتهن الصاخبة؛ فحدثت نفسي:

_ "أنا مالي ومالهم؛ الحمد لله إن (سامية) مش معاهم". وعندما كنت على وشك وضع قدمي علي أولي الدرجات القليلة التي ترفع المدخل عن مستوي الشارع؛ اختلست إليهن نظرة؛ فضبطهن ينظرن إليَّ وقد علت وجوههن ابتسامة غريبة؛ ولكني واصلت السَّعْي لأدخل المدرج قبل وصول الأستاذ. وقبل أن ألج إلى الداخل؛ سمعت إحداهن:

_ "يا أستاذ محمد؛ يا أستاذ محمد..".

توقفت في مكاني ثم استدرت ملتفتًا إليها. كانت مقبلة وبيدها مظروفًا أزرق والابتسامة الغريبة مازالت عالقة بثغرها. وعندما وَصَلَتْ إليَّ؛ مَدَّتْ يدها -التي تمسك بالمظروف- نحوي قائلة:

_"الجواب ده من سامية". لم أستوعب ما قالت. أصابني ذهول كاد يذهب صوابي؛ ولكني حاولت أن أبدو متماسكًا؛ وقلت لها:

_ "لِيَّا أنا؟!".

قالت وهي ما تزال تبتسم ابتسامتها الغريبة:

_ "أيوه يا أستاذ محمد؛ هَفْضَلْ مادَّة إيدي كِدَه كتير؟".

الْتَقَطْتُ الخطاب من يدها الممدودة. واجتاحني شعور جارف بالسعادة. وبدا لي أنني لا أقف على الأرض بل أحلق في السماء. وقلت وأنا أُهِم بدخول الكلية:

_ "ألف شكر..".

تحولت ابتسامتها -الغريبة- إلي قهقهة صاخبة؛ ثم قالت:

_"لا يا أستاذ محمد؛ سامية أكدت عَلَيَّ إنك لما تستلم الجواب؛ تفتحه وتقراه على طول".

وتركتني عائدة إلى زميلتيها المنتظرتين تحت الشجرة.. نزلت من حيث كنت واقفا. اتجهت إلى الحائط الذي على يسار الباب. أسندت ظهري عليه؛ ووضعت الحقيبة بين ساقيَّ؛ وفضضت

الخطـاب بيـدين مرتعشـتين. كانـت الورقـة لا تحـوي إلَّا جملـة واحدة:

_"يا أستاذ محمد؛ أنا تعبت من الحب الصامت؛ ياريت نتقابل علي الكورنيش قُدَّام التليفزيون؛ الساعة تلاتة مساءً"..

هزتني الفرحة. فقدت التفكير لحظات. وعندما استعدت توازني؛ حدثت نفسي:

_ "يا حبيبتي يا سامية؛ كنت بحسب الحب من طرف واحد؛ أنا ظلمتك؛ حقك عليَّ.. طيب وإيه العمل دلوقتي؛ مَيْصَحِّشْ أقابلها بالقميص القديم اللي عَلَيَّ؛ لازم أرجع علي طول عشان ألحق أكوي القميص الجديد"..

وعـدت إلي (المحطـة) جريًـا لألحـق بقطـار السـاعة الثامنـة والنصف العائد إلي بلدنا... مَرَّ (الجرسون) قريبًا من طاولتي. كان صـامتًا ولكـن نظراتـه غيـر طبيعيـة؛ مـا جعلني أنظر في سـاعتي. وجدتها تشير إلي الثانية والربع. قمت منتفضًا وأنا أحدث نفسي:

_ "يااااه.. أنا كِدا اتأخرت على سامية.. جري يا محمد".. وبعد عدة خطوات؛ لاحقني صوته:

_ "يا فندي..يا فندي".

_ "أيْوا..فيه حاجة؟".

_ "تمن المشروب يا خويا..طالع جري..مش عيب عليك".

_ "أصل..أصل..والله ما أقصد..".

_ "أصل إيه وفصل إيه؛ يا ناس حرام عليكوا". وضعت عشرة قروش في يده ؛ وكان العرق قد انساب على جبيني بغزارة. وتركت المقهى جريًا قاصدًا الكورنيش...

عندما وصلت إلى المكان الذي حددته (سامية)؛ حدثت نفسي:

_ "الساعة اتنين ونص تقريبا؛ كويس.. لِسَّا نُصْ ساعة؛ أكون أخدت نَفَسِي؛ ويكون النَّهَجَان راح"..

كانت المقاعد خالية من الجالسين، وقليل من المارة يمشون مسرعين على الرصيف؛ أما الشارع فيعج بالسيارات التي تصدر ضجيجًا لا يطاق.. لم تفلح مياه النيل في تلطيف حرارة الشمس الحارقة. انتقيت مقعدا ذو موقع ممتاز؛ واتكأت علي السور الحجري أمامه، رفعت يدي عنه بسرعة فقد لسعتها سخونته

الشـديدة. تراجعـت خطـوة إلى الـوراء؛ ورحـت أنظـر إلى النيـل الممتد أمامي..

كنت أتلفَّت خلفي على فترات منتظمة -كل بضعة دقائق- بحثًا عن سامية إذ ربما لا تراني؛ فألمحها عندئذ وأنادي عليها قبل أن تتعب عيونها في البحث عني.. ونظرت في ساعتي؛ كانت قد تجاوزت الثالثة؛ ولم تأتِ سامية بعد؛ وحدثت نفسي:

_ "معذورة يا حبيبتي؛ أزمة المواصلات هي السبب"..

بعد أن مللت من النظر إلى النيل؛ أخذت أتمشَّى جيئة وذهابا عـدة خطـوات في نطـاق المقعـد.. جلسـت لأسـتريح قلـيلاً. قمـت منتفضًا متأذيًا من شدة حرارة المقعد الحجري؛ وعدت أتَمَشَّي أمامه جيئة وذهابا.. الساعة الثالثة والنصف.. الرابعة.. ولم تأت سامية.. غمرني العرق؛ بَلَّلَ القميص؛ ومازلت أروح وأجيء أمام المقعد؛ وحدثت نفسي:

_ "لو معايا حاجة أحطَّها على راسي؛ أنا كِدَه هاخُدْ ضربة شمس بكل تأكيد".. فكرت في نزع القميص؛ لأضعه فوق رأسي –التي بدأت تؤلمني فعلاً- ولكني رفضت الفكرة علي الفور:

_ "النـاس هيقولـوا عليـك مجنـون يـا أبوحميـد".. وتـذكرت (عبد الحليم حافظ) وهو يزرع (كوبري قصر النيل) جيئة وذهابًا في (عـز الحـر)؛ واضـعا سـترته على رأسـه؛ وهـو يتصـبب عرقًـا، منتظرًا (فـاتن حمامـة)؛ في الفـيلم المشـهور؛ (وكأنهـا العـم جـودو الذي لن يأتي أبدًا).. أمام المقعد الخالي.

ركنت ظهـري على السـور رغـم سـخونته جـاعلاً النيـل خلفي بهدوئه الشـديد؛ والشـارع أمـامي بضجيجه العـالي.. بدا لي زحـام السـيارات في عـرض الشـارع والنـاس على رصـيفه -مـن خـلال الدموع التي ملأت عيني- ككتلة هلامية ممتدة تسده بإحكام.

تحولـت بعـد فتـرة إلى مـا يشـبه السـتارة الرماديـة؛ حاجبـة عني الرؤيـة ومواريـة خلفهـا الأفـق.. وذهبـت بمخيلتي إلى هنـاك؛ عبر الأفـق المسـدود؛ رأيـت الفتيـات الـثلاث مـازلن واقفـات يقهقهـن بحبـور وانبسـاط تحـت شـجرة (التـين البِنْغَـالِي) الرابضـة أمـام الكلية.

"القطار"

يَكُفُّ المطر عن الهطول؛ فنخرج ثلاثتنا بعد طول انتظار.. تغيظني خطوات أبي ومرافِقنا المتَّئِدَة المتثاقلة؛ ويدهشني تَجَهُّمْ أبي؛ وأهُمّ بالصياح؛ لكني أكتفي بزفرة طويلة.. وأمشي ورائهما؛ يخنقني الغيظ.. تتشتت السحب، وترسل شمس الضحى أشعتها الدافئة، فتتحول الملابس الشتوية إلى حمل ثقيل.. يتوقف مرافقنا عن المشي؛ يلتفت إليَّ عندما أحاذيه، وعلى وجهه شبه ابتسامة، ينفرج فمه؛ فتبدو أسنانه سوداء متآكلة، ثم تنطلق كلماته متلاحقة:

_ "وِشَّكْ حِلْوْ يا أفندينا؛ الدُّنيا دافية النَّهارْدَة؛ هتروح إن شاء الله مع الحج في قَطْرْ الساعة اتناشر للباشا في مصر"..

تغمرني الفرحة وترتسم على ثغري ابتسامة رِضَى. ولكن خطواتهما المتثاقلة تقضي على هدوئي المصطنع؛ فأصرخ مُتَبَرِّما:

_ لو مشينا براحتنا كِدَا هيفوتنا القَطْرْ؛ الساعة قرَّبَتْ على عشرة"..

يرد مرافقنا -من خلال قهقهات عالية- ببرود: متخافشي يا أستاذنا؛ لِسَّا بدري.

وأُشِيح بوجهي بعيدا فألمحُ المحطة؛ تجتاحني رجفة لذيذة؛ وألتفت إلى أبي فأراه شارد النظرات؛ يمسح بيده اليمنى أسفل صدره فوق جيب الصُّدَيْري الأيسر بهدوء غريب؛ وأتشاغل عَمَّا أرى بإنصاتي إلى صوت احتكاك أقدامنا بالحصى " شِنْ..شَكْ؛ شِنْ..شَكْ..".

هانحن -بعد أن عبرنا شريط السِّكَّة الحديد- ننحدر إلى الدرب المفضي إلى بيت الحاج؛ الحاج الذي سيصحبني إلى الباشا في مصر.. وأرى أثر ابتسامة على ثغر مرافقنا؛ فأتساءل متشجعًا:

_ "لِسَّه بيت الحج بعيد؟"..

يرد الرجل:

_ "خَمَسْ دقائق..الحج رجل خدوم يا أستاذنا"..

يمسح أبي على صدره من جديد؛ نظراته لازالت شاردة؛ ينقبض قلبي؛ وأشعر بصداع شديد... يقول مرافقنا وعلى ثغره ابتسامة عريضة: وصلنا يا أفندينا... ويهوى بقبضته دَقّا على باب ضخم عتيق؛ يعتريني شعور بالضحك، حاولت جهدي أن أكتمه.. تنفرج شُرَّاعَة الباب، ويطل رأس صغير مُغْبَرّ الوجه؛ جاء صوته -بعد فترة من الصمت- ممطوطًا خافتًا:

_ "مييين"..

ويفتح الباب؛ فيندفع مرافقنا إلى داخل الدار؛ وأبي وأنا من وراءه. وبعد عدة خطوات يصيح المرافق:

_ "ياربّ يا ساتر".. يلاحقه أبي مُرَدِّدًا:

_ "يا ربِّ يا ساتر؛ يا ربِّ يا ساتر".. يجيء من الداخل صوتًا عريضًا أجوف:

_ "دستوركوا معاكوا".. يرد مرافقنا وأبي في نَفَسْ واحد:

_ "صباح الخير يا.. صباح الخير"..

وتصطدم نظراتي برجل سمين - بشكل لافت- مكومًا في مواجهتي؛ يجلس في غرفة كبيرة انتهت بنا الطرقة إلى بابها المفتوح. أتفحصه بفضول: رأسه كبير؛ جبهته مرتفعة؛ عيناه غائرتان؛ و(كرشه) هائلاً يتدلى أمامه.. في وسط السكون التام الذي احتوانا -وكأن على رؤوسنا الطير- يتناول أبي يد تلك الكومة من اللحم البشري؛ يرفعها إلى أعلي؛ ويطبق عليها بيده الأخرى و(يَهُزُّهَا) بأريحية؛ ومن ثم يعيدها إلى مكانها بين طيات الجسد الهلامي. حبات العرق تتصافد من جبيني، تسيل منحدرة إلى أسفل، تدخل في عينيَّ، تعبرهما إلى ذقني؛ وأشعر بالانسحاق.. تنتشلني من بين أنقاض كياني المنسحق لكزة قوية، وألمح نظرات أبي الآمرة؛ فأرسم على وجهي ابتسامة خجولة، وأتناول اليد، وأشعر بملمسها اللزج وببرودتها الجليدية، فأتركها مذعورًا.. تُفْزِعُني رطوبة شديدة، وتزكم أنفي رائحة عفنة... كان الرشح يكسو الحوائط إلى ارتفاع عدة أشبار... يقشعر بدني؛ تسيطر عليَّ رغبة مُلِحَّة في الخروج.. قبل أن يسمح لنا بالجلوس؛ يخرج من كومة اللحم البشري دَوِيّ مرتفع:

_ "جَهّـزْ المطـرح بَـرَّه يـا ولد..الشـمس تِتْحَـبْ اليـومين دُولْ؛ مِـشْ كِدَه"...

يخرج الرجل الضخم، يمشي بصعوبة، يتمايل مع كل نقلة قدم؛ ونتبعـه ثلاثتنـا إلى الخـارج.. نجلـس على حصـير كـالح ممـدود بإهمـال.. ينطلـق صـوت موقـد الكيروسـين -الـذي أُشـعل لعمـل الشـاي- متـدفقا كصـوت طـائرة، يُصَـدِّعُ رأسـي، يصـم أذني... لا أدري لما القلق؟!؛ ألسنا في بيت الحاج؟ ولا شك أن هذا الرجل الضخم يعـرف عنـه الكثيـر؛ ولكـن مرافقنـا الجـالس منكمشًـا صـامتًا يصـيبني بـالحيرة؛ ألا يـتكلم مـع هـذا الرجـل ذو (الكـرش) المتـدلّي أمامـه على الحصـير؛ لِيُبلِـغ الحـاج بوصـولنا؛ وتتـدافع في رأسي أصوات متلاحقة:

_ "الحاج..القطار..الباشا..مصر..الحاج"

ينـتفض مرافقنـا واقفـا لرجـل نحيـل -كعـود حطـب- قَـدِمَ إلى مجلسـنا فجـأة؛ فيمتثـل أبي؛ وأتبعهمـا بِهِمَّـةٍ ونشـاط. ينفـرج فـم مرافقنا؛ ويخرج من خلال أسنانه المتآكلة صفيرا متقطعا:

_ " أهلاً..وسـهلاً..أهلاً.".. يتـرك أبي مكانـه عـل الحصـير للقـادم النحيل؛ يرفض الرجل قائلاً:

_ " يا رَجُل..انت ضِيفْنَا".. يُصر أبي؛ بينما الرجل الضخم رابضًا على الأرض؛ و(كرشه) متهدلاً أمامه بلامبالاة؛ ويجرفني التيار.. ينتشلني صوت مرافقنا:

_ "الشاي يا أستاذنا"..

يُناوِلُني كوب الشاي؛ ثم يميل برأسه نحو ذو الكرش الضخم، يهمهم في أذنه، يرفع رأسه، ثم يميل ناحية أبي؛ يضع فمه في أذنه، محركًا إصبعه السبابة أسفل الإبهام الثابت بحركات سريعة متمرسة. يرفع أبي يده إلى صدره بتؤدة، يدخلها في فتحة الجلباب، ثم يهبط بها إلى حيث يد مرافقنا . وكان الرجل ذو (الكرش) الضخم يحتسي الشاي؛ وينظر إلى الخلاء الممتد إلى المحطة، غير مبال بما يجري. يلتقط مرافقنا شيئًا من يد أبي، يميل إلى الجانب الآخر حيث الرجل ذو الكرش الضخم؛ ويدس هذا الشيء بين طيات ملابسه بِتَمَرُّسْ، ثم ينسحب بثقة. يُحرِّك الرجل رأسه يمينًا ويسارًا، يرفع يده من حجره؛ ويهوي بها على فخذ مرافقنا بقوة؛ ويصيح مزمجرًا:

_ "دُولْ شِوَيَّة ".. يبدو على مرافقنا الارتباك؛ تَمُرُّ فترة صمت؛ يتكلم مرافقنا بصوت منخفض ولكنه واضح النبرات:

_ "الله يسترها معانا ومعاك يا شيخ"..

تنسكب نظرات أبي على الحصير. القادم النحيل يتابع بفضول. مرافقنا يميل نحو الرجل ضخم الجثة وقد احتقن وجهه؛ يهمس في أذنه بعصبية واضحة محركًا يده في جميع الاتجاهات . ينتفض الرجل الضخم؛ يرفع يده إلى أعلى يهوي بها علي فخذه؛ ويهدر صوته مبددًا الصمت:

_ " يا أبو سلامة دُولْ شِوَيَّة، مَبِنْفَعُوشْ، أنا بَتْكَلَّمْ والشمس طالعة".. وأحدث نفسي:

_ "اسمك أبو سلامة، يا راجل يا طيب".. يقول أبو سلامة:

_ "ولكنك اتفقت على المبلغ اللي بترفضه دلوقتي".. يَرُدُّ الرجل ضخم الجثة، وكان صوته هادرًا مرعبًا:

_ "دول مينفعوش قلت لك، انت عارف إني حاخد للباشا رومي وبط وِوِزْ؛ إيه اللي حيتبقَّالي؛ هو أنا كلب خشب ولَّا إيه".. يلاحقه أبو سلامة:

_ "عيب يا حج".. حاج؟!؛ لا أصدق؛ هل هذا هو الحاج؟!. وأسمع أبي يتكلم وكأنه ينتحب:

_ "يا راجل؛ يعلم الله أنا جِبْتُهُمْ مِنِينْ"..

بدا الحاج الصامت -الذي لم (يهتز له رمش)- بجسده الضخم و(كرشه) البارز؛ كتمثال (بوذا). وكان أبي وأبو سلامة منكمشان في صمت؛ بينما الرجل النحيل ينظر إلينا بشماتة واضحة. وأحدث نفسي بأسى :

_ "يا لك من قاسي القلب يا ذو الكرش الضخم، يا ساكن البيت العفن ، يا حاج!؛ يا حاج !"..

تلسعني حرارة الشمس الساطعة؛ ويغمرني العرق الملتهب. وأشعر أن تربُّعي -فوق الحصير الكالح- يُقَيِّدُني في نار شديدة الأُوار.. وأنظر إلى ذي (الكرش) الضخم -الذي يشبه كرش (بوذا)- وانتفض فزعًا.. وأجري.. أجري بعيدًا.. وأقف لألتقاط أنفاسي.. وأمشي على مهل، بخطوات مُتَّئِدَة؛ وأنصت إلى صوت احتكاك قدميَّ بالحصى: "شِنْ..شَكْ؛ شِنْ..شَكْ..".

"قتلت الحشرة"

تَوَقَّفْتُ عن الجري عند (القَطْعْ) لاهثًا يَنِزُّ العرق من جسدي؛ اهتديت إليه في (العتمة) على صوت تدفق المياه، وكانت كلمات أمي تدوِّي في رأسي:

_"طَيِّبْ يا محمود، بِخاطْرَك، أمْرِنا لله؛ معانا ربنا، يعني لولا ابن الحلال اللي بلَّغْنا؛ عَوَضْنَا على الله في الدُّرَة؛ دا لِسَّا مَنَطَقْشِي الشُّرَّابة"..

وقفت مذهولاً أمام هذا المشهد الذي لم أرى مثله من قبل؛ وبعد لحظات تفكير محمومة، أدرت وجهي تجاه القرية، ووضعت كَفَّيَّ على جانبي فمي؛ وصرخت (بعزم مآبي):

_"جآىْ..جآآيْ..جآآآيْ"

تَرَدَّدَ صدى صراخي متتابعا شارخًا سكون الليل البهيم؛ ثم تبدد في الفضاء الواسع.. وعاد السكون من جديد. كنت أنظر مذهولاً إلى المياه المُتَدَفِّقَة من (القَطْعْ) كالطوفان؛ وإلي (المِسْقَى) التي فاضت؛ بعد ري كل أراضي (الزِّمام) في نهاية (المناوبة). تَشَتَّتَتْ أفكاري. مزقتني الحيرة. لا أدري ماذا أفعل؟.

غمرني شعور بالعجز. وعادت كلمات أمي تخترق رأسي كالمسامير المُحَمَّاة:

_ "طَيِّبْ يا محمود، بخاطرك..أمرنا لله؛ معانا رَبِّنا"..

اجتاحتني سخونة مفاجئة. انتفض جسدي. وجدتني أرتمي في (القَطْعْ)؛ هَوَيْتُ فيه بملابسي، ضَغَطْتُ بظهري جانب؛ وبِرُكْبَتَيَّ الجانب الآخر. تعجبت من استواء جانِبَيَّ (القَطْعْ) وكأنه قُدَّ على مقاسي؛ وازداد عجبي لحدوث ذلك في هذا الجسر الذي جعلته الحلفاء والنجيل ثابتًا متماسكًا على مر السنين.. توقف تدفق المياه، وتلاشي صوت هَدِيرُها المرعب.. وعاد السكون الموحش من جديد؛ حاولت الإفلات من قبضته بالإنصات إلي صوت خرير المياه المتسربة من حولي؛ ورحت أجتر ما حدث...

جَلَسْتُ على شاطئ الترعة -على مشارف القرية- في عتمة الليل أنتظر متحفزًا منتفضًا كالمحموم، حتى (تَنْقَطِعْ الرِّجْلْ). وعندما تأكَّدْتُ من (انقطاع الرِّجْلْ)؛ ذَهَبْتُ إليها.. وبعد عدة خطوات؛ حدثتني نفسي: "مَتِمْشِيشْ في الطريق؛ انزل في غيطان الدُّرَة أضمن"..

شعرت أن الظلام الدامس؛ والسكون التام -إلَّا من (خَرْوَشَة) عيدان الذرة- سَيُزْهِقان روحي. حاولت تناسي ما أنا فيه بالهرولة وراء الرَّغبة التي طارت إلى أحضانها. لم تؤلمني ضربات عيدان الذرة؛ ولا خدش وجهي بحواف أوراقه.. تعثرت في قطة نائمة في حالها. أفزعني مواؤها المفاجئ. جريت مبتعدًا عنها؛ فرُبَّما كانت (جِنِّيَّة) تريد أن تأخذني من (جَمَلاتْ).. فوجئت بغوص قَدَميَّ في الأرض؛ لقد نَزَلْتُ في (غيط) ذرة مرويًا لِتَوِّه؛ تأكدَّتُ من ذلك من (تَلْبِيكْ) قدميَّ في الوحل. واصلت السير في الأرض الموحلة؛ إلى أن وصلت أخيرًا إلى نهاية (الغيط) الذي يرسي على شارع (دايِرِ النَّاحِيَة). وكَمَنْتُ في مواجهة بيتها الذي في الجانب الآخر من الشارع؛ جالسًا القرفصاء؛ لأتفادى تلطيخ جلبابي بالوحل. وحدثت نفسي وأنا أتحرق شوقًا للذهاب إليها: "محَدِّشْ هيشوفني وأنا طالع شجرة التوت دي اللي جنب

شِبَّاكُها؛ لحظات ويخرج (الجِلْفْ) جوزها لِدَرَكُه؛ احْنَا بقينا في نص الليل"...

بصيص النور المنبعث من فُرْجَة نافذتها -الذي رأيته من خلال أغصان شجرة التوت- أجَّجَ لهيب الرغبة في رأسي. حَفِيفُ الرِّيح في (شواشي) عيدان الذرة كان يردد اسمها باستمرار "جَمَلاااااااتْ؛ جَمَلاااااتْ"..

(جَمَلاتْ) تَرَبَّعَتْ في رأسي منذ أن رأيتها فوق سطح بيتها لأول مرة؛ وكانت تتلوى كاشفة عن مفاتنها الطاغية بحركات متمرسة؛ شعرها المرسل تحت منديلها الأبيض، ورقبتها العاجية، وصدرها المرتفع البَضّ؛ ونحرها المخروط بانتظام رائع؛ وذراعيها الناصعين.. جاءت (جَمَلاتْ) يومًا -وكانت لا تزال عروس- تطلب أمي؛ ولكنها وجدتني وحيدًا بالبيت- وكنت عائدا توًّا من المدينة- وبدلا من انصرافها؛ فوجئت بها تقترب مني وعلى وجهها ابتسامة ماكرة. وكانت تنظر إليَّ بعينين نصف مغمضتين؛ تكاد تنطبق أهدابها الطويلة. أخذت أنظر مشدوها إلى عينيها؛ إلى أسنانها اللؤلئية؛ منتشيًا من لفح أنفاسها الساخنة؛ ولمسات شعرها المرسل. ورُحْتُ في غيبوبة.

أفقت منها على صوتها الهامس قريبًا من أذني: "مالك؟"..

ضَـحِكْتُ ضـَحِكَة متشـنجة مكتومـة وأنـا أحـاول التقـاط أنفاسي اللاهثة. وكان الدم قد صعد إلى وجهي. وتحول جسدي إلى جمرة ملتهبة...

سعادتي لا توصف وأنا تحت نافذتها؛ بينما تتناهى إلى أذني ضحكاتها المجلجلة وهمساتها الحالمة.. فَتَحَتْ (جَمَلاتْ) الشباك، قذفت خِرْقَة، لا أدري كيف تفادت أغصان التوتة لتسقط أمامي مباشـرة. امتـدت يـدي تلتقطهـا. فضضـتها بعيـدًا عـن أي تفكير. انتبهـت فزعًـا لملمسـها. واقتحمـت أنفـي رائحـة فظيعـة. كانـت أصـابعي قـد غاصـت في شـيء لـزج دافئ؛ اقشـعرَّ بـدني، قـذفتها بعنف. وسـمعت صـراخ طفلهـا؛ الـذي تمنيت أن أقتلـه.. سـمعت صرير الباب فجأة. انبطحت بسرعة. وأخذت أتمتم؛ متابعًا بعينيَّ:

_ "يـا فرحتي؛ خـرج الجِلْـفْ؛ بعـد مـا طـال الانتظـار؛ جائِلـكْ يـا جَمَلاتْ"..

خـرج كالشـبح، ذائبًـا في (العتمـة). لـم أتبـين منـه إلا قمـة (الطربـوش) وطـرف البندقيـة. تتبعتـه بإصـرار وهـو يتـوارى بعيـدًا عـن مـدى رؤيتي المحـدود؛ وأخـذت أنصـت إلى وقـع قدميـه. ولَمَّـا تأكـدت من ذهابـه؛ شـعرت بنشـوة هائلـة. وغـادرت مكمني قفـزًا؛

لأقطف الثمرة التي طابت.. تَسَلَّقْتُ الشجرة بسرعة وبمهارة وحدثت نفسي وأنا بين الأغصان:

_ "لحظات وأكون بجوار(جَمَلاتْ)؛ مِشْ هيِرْجَعْ الجِلْفْ إلَّا وِشْ الفجر"..

كان الدم يجري في عروقي حارًا جدًا؛ صعدت حرارته إلى قمة رأسي.. عندما كان (الشباك) في محاذاتي وجدته مغلقًا؛ لم أفتحه؛ بل واصلت الصعود، رافضًا فكرة الدخول من النافذة كاللصوص، فهي تنتظرني علي أحَرّ من الجمر. سأنزل على السقف؛ ومن هناك أهبط إلى باب حجرتها؛ الذي سأجده مواربًا بلا شك...

بَدَأْتُ أشعر بسريان برودة المياه في جسدي المتكوِّر في (القطع).. حدثت نفسي وقد تملكني الخوف: "لِسَّة مَحَدِّشْ جِهْ"..

بدون توقع؛ تبدد السكون الموحش بنباح الكلاب آتيًا من بعيد؛ ثم اختلطت أصوات الناس بنباح الكلاب. كانت الأصوات خافتة؛ ولكنها هَدَّأَتْ من رَوْعِي.. ورحت أسترجع الأحداث؛ التي سالت من مخيلتي بلا أي جهد..

بدت لي البيوت -من فوق (التوتة)- ككتلة سوداء ساكنة يضمها الأفق المعتم بقوة غاشمة. كنت ممسكًا غصنًا بيد وواضعًا اليد الأخرى فوق السقف ومرتكزًا بجسدي على الحائط. أدرت وجهي ناحية بيتنا؛ وكأَنَّ حجرًا قد قُذِفَ في عيني. كان هناك ضوء في صحن الدار، أرهفت السمع، التصقت بأذني كلمات خافتة، مبهمة. حدقت بشدة، رأيت أبي يدور في وسط البيت بخطوات متعثرة وأمي خلفه تحمل لمبة تتمايل زبالتها بعنف؛ يُلاحِقُهُما صراخ إخوتي؛ ولكني عدت بسرعة أصغي إلى عواء طغى على صراخهم وملأ فراغ رأسي: "سِيبَكْ منهم؛ مَتْوَقَّفْشِي؛ انت قَرَّبْتْ تُقْطُفْ الثمرة"..

واصلت تسلق التوتة. وعند اقترابي من السقف؛ رأيت أبي خارجًا من البيت؛ اتجه نحو بيت جارنا (أبو سالم)؛ طرق بابه بقوة؛ لم ينتظر من يرد عليه؛ جرى إلي بيت (خِضْرْ)؛ ثم إلى باقي بيوت الحارة. كان يدق بيديه الأبواب؛ ويزعق في نفس الوقت: "الحقونا يا عالم"..

سمعت صوت (أبو سالم)؛ كان مكتومًا كأنه آتيا من قاع جُبّ:

_"يا ساتر؛ جرى إيه؛ جايلك يا أبو محمود".. ثم صوت من بيت مجاور:

_ "يا ساتر يا رب"..

عاد أبي إلي بيتنا مهرولاً، انكفأ علي وجهه لتعثره في عتبة الباب؛ ساعدته أمي علي النهوض، وقالت وهي تناوله (مقطفًا) وفأسًا:

_ "يا ترى انت فين يا محمود؛ أمرنا لله؛ بِخَاطْرَكْ؛ غِيتُونا يا مسلمين؛ الأرض غِرْقِتْ". وأردف أبي بصوته الواهن:

_ "يا رب حُوشْ؛ يا رب استر؛ معاشنا؛ رزق العيال"..

حاولت الانصراف عما رأيته بالتفكير في ثمرتي التي أقترب من قطافها؛ ولكن النقار الذي احتدم بين ثلاثتنا -الليلة قبل صلاة العشاء- سحبني بعيدًا عنها.. كانت أمي تنهرني هامسة؛ ولكنه كان همسا حادًا كنصل سكين:

_ "يا بني بلاش فضايح"..

شعرت باختناق من شدة الغيظ. انْتَفَضْتُ واقفًا؛ واتجهت نحو الباب؛ وقلت بصوت مرتفع:

_ "إنتوا عايشين في الغيط؛ ورا الجاموسة؛ يا عالم أنا في الجامعة، هدومي، فضحتو".

قاطعتني بحدة:

- "يا بني؛ أبوك راجل كبير؛ بَعَتَكْ تتعلم في مصر؛ وتْحَمَّلْ لوحده تعب الفاس؛ أخواتك قطط مغمضة؛ حتى في الأجازة؛ تقعد على الترعة عينك في عينه، وهو يا حسرة؛ عرقه بِيْشُرّ والفاس في إيده، الرَّحْمَة حلوة، خِفّ علينا؛ احنا بِنْجَوَّزْ اختك"..

التَفَتُّ خلفي -بعد أن خطوت خطوتين نحو الباب- فرأيت يدها ترتفع لتمسح دمعتين مستقرتين على ذقنها؛ وقلت وأنا أكاد أنفجر:

_ "بِتْجَوَّزُوها؛ بعد مَرَفَضْتُوا ابن أبو اسماعين".

فقال أبي بسرعة:

_ "هنْجَوَّزْهَا لْسِيدْ سِيدُه".

وكنت قد استدرت بسرعة. وامتدت يدي لترفع (سُقَّاطَة) الباب. وخَرَجْتُ صافقًا الباب خلفي بعنف.. وفي الشارع؛ حدثت نفسي:

_ "كل النِّقَارْدِهْ بدون نتيجة؛ أرجع تاني وأحاول لَعَلَّ وعسي".

وعندما اقتربت من البيت، سمعت صوته:

_ "مِشْ عايْزُه يشتغل معايا في الغيط، عايْزُه بِنْجَحْ، نجاحه هو اللي هيْشَرَّفْني".

رَدَّتْ عليه: "الناس كَلَتْ وِشِّنَا؛ كل يوم قاعد على الترعة؛ هُوَّا".

دَفَعْتُ الباب وصحت مقاطعًا:

- "أقعد فِينْ؛ معاكي في البيت؛ ولَّا تحت رِجْلِينْ الجاموسة في الغيط؛ ليه ودِّيتُوني الجامعة؛ لَمَّا انتو مش حِمْلِهَا؛ عَقَّدْتوني من الهلاهيل اللي علي جِتِّتِي؛ أنا مِشْ أقل من الطلبة؛ يا ناس حرام". قالت وهي تضغط أسنانها:

_ "دول أغنيا يا محمود يا بني؛ عِيشْ عِيشِة أهلك؛ واحمد ربنا اللي قَدَّرْ أبوك يِوَدِّيكْ العلام؛ استحمل يا بني ربنا يِهْدِيلَكْ نَفْسَكْ"...

تراخت يدي الممسكة بالغصن، وكدت أفقد توازني، وخوفًا من السقوط، تَشَبَّثْتُ به باليد الأخرى . تَصَبَّبَ العرق من جبيني باردًا؛ أحسست بسيولته على جسدي، أفزعتني لزُوجته المُقَزِّزَة.. وشرعت في النزول .

رأيتها من الشباك المُوارِبْ؛ مُمَدَّدَة على السرير بجلبابها الأسود؛ واضعة يدها علي ابنها، تُلْقِمُهُ ثديها. وزَكَمَتْ أنفي رائحة مُنْتِنَة. وحَطَّتْ علي جبهتي حشرة، انْتَفَضْتُ من ملمسها البارد المُنَفِّرْ، وكِدْتُ أسقط؛ لولا أنّي تداركت نفسي، فقد لَطَمْتُ جبهتي بِقُوَّة، وقَتَلْتُها.. قُتَلْتُ الحشرة.

opeikan.com

obeikan.com

"العائد إلى الحياة"

انبلج ضوء باهر. وتَرَنَّح فضاء لانهائي مغلف بالبياض. ومن خلال عينين نصف مغمضتين؛ لمحت وجوها متجهمة؛ وعيونًا تحدِّق في جسدي الملقى على أحد الأسِرَّة المتراصَّة؛ وحدَّثت نفسي: "ها قد عدت إلى الحياة؛ من الهوَّة السحيقة، من الأعماق".

وفي حركة ارتداد عنيفة؛ تلاشت الوجوه المتجهمة؛ والعيون المحدِّقة؛ وتلاشى البياض...

كانت الحافلة تسير بطيئة مترنّحة؛ وتتمايل بعنف؛ فترتطم الأجساد المكدسة. وكنت غير مهتمًّا بما يجري حولي؛ تاركًا جسدي يتأرجح مع الكتلة البشرية يمينًا وشمالاً.. وضربت أذني حَشْرَجات متقطِّعة؛ شدتني من لامبالاتي:

_"يا أُسْطَى؛ الرَّحمة؛ أرجوك؛ العربة لا تحتمل المزيد"..

دفعني الفضول إلى البحث عَمَّنْ أطلق هذه الحَشْرَجات. كان رجلاً محتقن الوجه؛ جاحظ العينين؛ محدودب الظهر؛ في الخمسينيات تقريبًا. لم يسمع السائق حشرجاته الخائفة؛ فقد كان في قمة الانبساط، يردد أغنيته المفضَّلة مع صوت المُغَنِّي المنطلق من جهاز التسجيل أمامه "السَّحّ الدَّحّ امبوه، إدّي الواد لابوه"..

انتبهت على صوت المحصِّل؛ الذي كان واقفًا بجوار السائق يشاركه الانبساط: "يا مواطن؛ نصيحة؛ انزل وخد تاكسي".. وعدت أنظر -بلامبالاة- إلى كتلة الأجساد الخائفة.. ترنَّحت أفكاري؛ وتدحرج جسدي علي منحدر أملس، واستقر في هوة سحيقة مليئة برجال؛ بطونهم كبيرة؛ وأفواههم عظيمة الأشداق؛ كانوا يمطرونني بكلمات تلسع وجهي كالسياط:

_ "لا توجد وظيفة خالية؛ لا يوجد عمل"...

كانت رؤوس المارة تتابع على الرصيف؛ وتتوارى بسرعة غريبة. أحسست برجفة خفيفة؛ وبسرور أذهلني عَمَّا حولي.. انتبهت على صوت نقر المحصِّل على صندوقه الخشبي؛ وعلى

أنفاسه التي كانت تلفح وجهي؛ وشد انتباهي نحوله الشديد.. دسست يدي في جيبي؛ فاصطدمت بعدة قطع معدنية، أخرجتها، عددتها بسرعة؛ كانت خمسة وسبعين قرشا.. ازداد النقر إلحاحا؛ فوضعت في يده ثلاثة قطع؛ نقلها إلى جيبه، وقذفني بالتذكرة؛ وعاد إلى النقر على صندوقه الخشبي وهو يصرخ"ورق؛ ورق"... وقفز -كالبهلوان- معتليًا ظهور المقاعد؛ فبدا وكأنه يمشي فوق الأكتاف؛ وتابع صياحه "ورق؛ ورق".. وعدت أسترجع:

"في مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي؛ قال لي الرجل الكبير الجالس خلف مكتب لامع؛ فُوت علينا زى النهارده"..

عدت يومها إلى القرية والفرحة تغمرني. وبشَّرتُهم بالفرج القريب. وها أنذا؛ ملتزما بالموعد الذي حدَّدَهُ لي ذلك الرجل الطيب؛ أعود مبكرًا.. توجهت إلى الموظف الجالس على باب الرجل الكبير -الذي كان منهمكًا في التهام سندوتشات الطعمية- وقدَّمت نفسي وعلى وجهي ابتسامة خجولة. لم يتجاوب مع ابتسامتي، ونظر إلى متجهمًا؛ وقال بقرف:

- "أين الأوراق؟"..

في لمح البصر وضعتها أمامه؛ محدِّثًا نفسي:

_ "يا أيها المتعجرف؛ عمَّا قليل سأكون موظفًا مثلك".. فاجأني صراخه عاليًا مجلجلاً. كان يمطرني بكلمات متتابعة سريعة كالقذائف:

_ "أين البطاقة الشخصية؟".. أخرجتها من جيبي؛ ووضعتها أمامه وأنا أقول متلعثمًا:

_ "البِطَا.. طَا.. قَة؛ حَضْ.. حَضْرِتَكْ".. وضعها فوق الأوراق؛ وواصل أوامره المتعجرفة:

_ "روح صوَّرها كلها؛ وإياك أن تنسى؛ سبعة صور من كل ورقة".

كان الزَّبَدُ قد تطاير من فمه مختلطًا بفُتاة الطعام؛ الذي التصق بعضه بوجهي وسقط البعض الآخر على الأوراق. أصاب تفكيري الشلل. وبعد أن استعدت توازني؛ تَمْتَمْتُ بصوت لم يغادر شَفَتَيَّ:

_ "لم يخطر ببالي أنني سأتعرض لمثل هذه المشكلة؛ كانت النقود محسوبة بالضبط كي تغطيّ رحلتيْ الذهاب والعودة؛ ما العمل هل أعود؟؛ أو أستخرج الأوراق المطلوبة؟". لم أفكر كثيرا؛ وخرجت مسرعًا لاستيفاء المطلوب...

عـدت إلى الموظـف -وأنـا ألهـث- بعـد أن نَفَّـذْتُ أوامـره بـالحرف. وضعت الأوراق على المكتب متمتما:

_ " الأَوْ..رَاقْ؛ حَضْ.. رِتَكْ.."..لم ينظر إلى الأوراق؛ وقال متجهمًا:

_ "انتظر هنا".. وقام متثاقلا؛ وتوجَّه إلى مكتب الرجل الكبير، لم أمتثل لأمره، بل التقطت أوراقي وتتبعته؛ وأمام البـاب الموصـد توقفـت .. بعـد وقـوفي أمـام البـاب فترة مـرَّت عليّ كالسـاعات الطوال؛ خرج الموظف، ولما وجدني أمامه؛ قال باشمئزاز:

_ "تفضَّل ادخل للبك".. دلفت إلى الداخل مسرعًا. وقبل أن تقع عينيَّ على الرجـل الكبير؛ فوجئـت بجـو الحجـرة المكيَّـف ؛ الـذي نقلتني برودته المحببة إلى حالة من الاسترخاء شعرت على إثرها بشـرود مفـاجئ.. انتفضـت بشـدة عنـدما فوجئـت بصـوت الرجـل الكبير مرتفعًا مجلجلاً؛ وكان منكبًا على أوراقه يقلِّبُ فيها:

_ " طلباتك".. أجبته متلعثما:

_ "الأوراق..حضرتك..وعدتني الأسبوع الماضي"..

مَـرَّ بعـض الوقـت؛ وكان لا يـزال منكبًـا على أوراقـه؛ كـررت وقـد ازداد تلعثمي:

_ " الأَوْ..أَوْ..رَاقْ؛ حَضْ..حَضْ..رِتَـكْ..".. بعـد فترة مـن الصـمت؛ قال بصوته الهادر دون أن يرفع وجهه:

_ " آسف يا بني؛ لا يوجد عندنا شغل".. أصابني دوار مباغت، وزاغت نظراتي، واكتسى الفراغ أمامي بلون رمادي، وخرجت مسرعًا قبل أن أسقط على الأرض...

كنت أنظر إلى رؤوس المارة؛ وإلى أشجار تخبئ داخلها ظلمة حالكة؛ تتتابع على الرصيف. وكانت أفكاري قد انصرفت إلي هناك؛ تذكرت أبي وأمي، وإخوتي.. شدني صراخ (الكمساري) المفاجئ إلي انتباه لاهث:

_ "أول شارع ستة وعشرين يوليو".. ترنَّحَتْ الحافلة بشدة؛ فاهتزت كتلة الأجساد الرخوة المكدَّسة؛ وبرز الوجه الخائف من جديد، وصاح:

_ "حاسب يا اسطى".. وعادت أفكاري لتشرد من جديد؛ وتسائل الفتى الحزين في أعماقي:

_ "هل ستعود؛ وإذا عدت فماذا ستقول لهما؛ وهل معك نقود للعودة"..

كانت الكتلة الهُلامِيَّة قد تحجَّرت؛ وتحولت الحافلة إلي قبر مليء بأجساد محنَّطة؛ يرعى فيها الدود. احتواني رعب قاتل؛ واكتسي وجهي بقطرات باردة تكاثرت وتجمعت ثم انحدرت إلى أسفل لتغمر جسدي. وأصابتني قشعريرة شديدة. وشعرت برغبة أكيدة في الانحدار إلى الهاوية. وصحت مستعينا بكل ما تبقى في جسدي -المنهك- من قوة :

_ "أسرع يا اسطى".. ردَّ (الكمساري) بسرعة:

_"تذْكَرْتَك انتهت يا أستاذ"..

بانصياع تام، اتجهت إلى باب الحافلة. وعند أول موقف؛ انسكب جزء من الكتلة البشرية على الرصيف وجرفني معه... ابتلعني زحام هلامي يسيل على الرصيف إلى ما لانهاية. وسرت مع الجماهير الزَّاحفة؛ ناظرًا إلى الشمس المنحدرة؛ التي أوشكت على المغيب. انقبض قلبي، وتخاذلت ساقيَّ. وتوقفت محدثا نفسي:

_ "إلي أين ؟!؛ الطريق على يسارك؛ عندما تصل سوف لا يكون هناك صرِّيخْ ابن يومين؛ ستبتلع تلك الأبراج هذه الجموع الزاحفة"..

هبت ريح باردة؛ وتحجرت الوجوه؛ وإن ظلَّت عيونها مفتوحة؛ وعدت أحدث نفسي:

_ "هل ستعود؛ ليراق ماء وجه أبيك ثانية علي أعتاب بيوت الجيران؟"..

تمنيت أن أعود لأستجدي ذلك الرجل ذو الكرش الكبير الجالس خلف مكتبه اللامع.. وفجأة تلقت خاصرتي لَكْزَة قوية؛ وسمعت ضجيجًا موجعًا:

_ "حضرتك ماشي علي راسك؟".

كان أمامي رجلًا مفتول العضلات؛ مرعب القسمات؛ أجبته متلعثمًا:

_ "مع..معذرة..يا أُسْ..تَاذْ "

توقفت أمام واجهة زجاجيَّة ضخمة؛ تتناثر خلفها أشياء بديعة. وكانت المدينة قد أحيطت بظلال رماديَّة.. انكمشت حزينا في تِيه لانهائي لا أعرف أين الاتِّجاه؛ لا أعرف ماذا أفعل.. كانت الأضواء الصادرة من بعض النوافذ البعيدة ومن أضواء (النيون) قد بدَّدَتْ تلك الظلال الرمادية.. ابتلعني بياض فضي؛ كنت أرى

من خلاله أشياء كثيرة؛ وأشباه دُمَى متراصة خلف الزجاج الشفَّاف؛ وبجوار دُمْيَة ذات عينان خضراوان؛ رأيت قطعة لامعة من قماش بديع؛ تنعكس عليها أضواء شديدة؛ فوقها بطاقة أنيقة منقوش عليها أرقام وحروف لامعة: (٥٠ جنيهًا). غرست نظراتي في وجه الدُّمْيَة ؛ وصاح الفتى الحزين في أعماقي:

_ "النساء في قريتي لا يضعن تلك القطعة؛ صدورهنَّ متهدلة خلف ستائر سود"..

أحسست أن يدًا قوية تعتصر قلبي؛ وقلت منكسرًا :

_ "هل أعود لأستجدي من جديد؟؛ ولكن لا أحدا هناك فالكل قد عاد؛ لقد انتهت النقود. أين أقضي هذه الليلة؟"

كانت بجواري فتاة عيناها سوداوان واسعتان كعيني غزالة؛ كانت تلتهم بنظراتها تلك القطعة ذات الخمسين جنيهًا؛ بينما تضغط بيدها الأخرى كيس النقود؛ فقال الفتي الحزين في أعماقي:

_ "ماذا لو اختطفت الكيس؟"

شعرت أن قلبي يتفتت. وانتابني إحساس قاتل بالوحدة بين هذه

الوجوه الصَّارمة التي لا تتجاوب مع أحد؛ إلى أين تتجه ومن أين تأتي؟ أي منبع يقذف بهذه الجموع؟؛ أي مدينة هذه بأبراجها الشامخة التي لا أعرف فيها أحد؛ تلك الأبراج المليئة بالخيرات وبالنعيم المقيم.. أحسست بالجوع ، ورحت أكلم نفسي:

_ "أريد أن آكل ، أي شيء ، ولو كسرة خبز جافة"..

تأرجحت أضواء النيون، ثم ذابت في بحر أبيض مشبَّع بالصُّفرة. وتحوَّل الشارع إلى مجرَّد فراغ مليء بالجليد؛ وكان قلبي قد تَهَشَّم؛ وحدثت نفسي:

_ "الطريق على يسارك؛ اتَّجِه إلى الميدان الواسع، عدة خطوات وتصل إلى الكوبري، ولكنّي جائع؛ يا للعذاب. ولكن خمسين قرشا لا تكفي لشراء أي شيء في هذا المكان المترف"...

عبرت الشارع دون أن أبالي بزمجرة السيارات المسرعة؛ وكانت المدينة تنحدر نحو الميدان الكبير؛ فانحدرت معها بدون أي تفكير؛ وكانت الأضواء قد ازدادت بريقًا.. ابتلعني الزحام؛ ونظرت إلي أعلى، إلى أبراج وعمارات شاهقة ذات أضواء متلألئة وأضواء مترنحة؛ لا أعرف فيها أحد:

_ "ألا أجد نقودًا لأدفعها ثمنًا لقضاء هذه الليلة؟؛ ولكنك جائع، ابحثْ عن أي شيء لِتُسْكِت به هذا الجوع المهلك؛ وبعدها فَكِّر في النوم"..

وفجأة، حجب عني الرؤية جسد ضخم؛ كان رجلاً جلبابه قذر يرتدي فوقه (مريلة) أقذر؛ يحمل على رأسه وعاء متسع به طعام يبيعه لأمثالي. سال لعابي حتى كاد يملأ فمي. وبسرعة وضعت في يده القطع المعدنية المتبقية؛ ولكنه أخذ يقلِّبها عدَّة مرَّات؛ ثم مطَّ شفتيه. كنت أتتبعه وقلبي يرتجف وقد اغرورقت عيناي. وبعد هذا الحوار الصامت؛ رفع الرجل يده إلى الوعاء والتقط لفافة وضعها في يدي؛ ثم توارى في الزحام . التهمت الطعام بشراسة . وبدا لي أن بطني قد تهدلت. وشعرت بارتخاء، وبرغبة في الجلوس ؛ ولكني لم أتوقف. وتعَقَّبْتُ أفكاري التي سبقتني إلي الميدان الكبير.. عانيت من ذهول غامض خفت أن يبعدني عن الميدان؛ ولكني حدثت نفسي:

_ "ستذهب إلى الميدان؛ ومنه إلى الكوبري ثم ينتهي كل شيء"...

كنت أتدحرج صوب الميدان الكبير بدون أي مجهود يذكر. وتساءلت وأنا أنظر إلى الكتلة الهلاميّة الزاحفة:

_ "هل سأذوب في هذه الجموع؟"..

وفجأة؛ ارتجَّت الكتلة الهلامية بشدة، فانتثرت كتلة صغيرة ناعمة، كانت فتاة شقراء تسير بدلال، وسطها يترنَّح بدلال هائج، ثوبها يبرق بريقًا صارخًا تحت الأضواء المبهرة، البريق تزداد حدَته فوق الردفين الهادرين؛ رقبتها تبزغ -كاللبن الحليب- وتختفي خلف شعرها الذهبي عندما يهف الهواء الفاتر (إيشارب) حريري لامع.. تتبعت الثوب القصير بنظرات فضوليَّة؛ فوجدته قد انتهي بسرعة ليُظهر ساقين كالمرمر. واسترعى انتباهي شق أنيق أسفل الثوب تبرز منه أطراف غلالة رقيقة أثارت في رأسي الفارغة معان حقيرة. كان جسدها ينثر عطر مجنون؛ نكأ في قلبي جرحًا أخذ ينزف دون توقف.. توقفت الفتاة أمام واجهة متلألأة؛ وكان قلبي لا يزال يُدْمِي، ودارت بي الدنيا.. وجالت بخاطري ذكريات ظننت أن ما أعانيه قد مسحها من مخيلتي؛ تذكرت (ليلى)؛ وكنت قد قلت لأمي ذات يوم:

_ "هل تعرفين ذلك البيت الأبيض المتواري خلف الأشجار؟ هناك بجوار محطَّة القطار؟ ". ردَّت مندهشة :

_ "أعرفه"؛ قلت والفرحة تغمرني:

_ "ألا تذهبين إليه؟". امتقع وجهها؛ وقالت مستنكرة:

_ "لماذا؟"؛ أجبتها بسرعة خاطفة:

_ "لجل تخطبوا لي بنت في هذا البيت"..

وبدلاً من رد فعلها الذي كنت أتوقعه؛ كان مُجَرَّد الصمت مع دموعها التي انسابت بغزارة؛ وكانت تتحسس ثيابها.. انجرفت المدينة في هُوَّة سحيقة شديدة الظلمة، شديدة البرودة؛ وكان جسدي قد تصلَّب.. وانتبهت على صوت نسائي:

_ "حسنة يا بيه الله يخلِّيلَك حبيبتك".

نظرت حولي بفضول؛ إنها الفتاة الرشيقة ذات البريق الصارخ والعطر المجنون؛ وكانت تنظر إليَّ من فوق كتفها باشمئزاز، فنظرت -بدون وعي- إلى ثيابي، قميصي المتواضع، وبنطلوني اللامع من القِدَم وكثرة الكَيّ ، وحذائي المتهالك. وكانت الفتاة قد عبرت الشارع؛ واختفت وسط الجماهير.. كانت أفكاري قد شردت، فسرت صوب الميدان بدون أي تفكير...

جذب انتباهي فضاء غير عادي. كانت الأضواء تنسكب على الأرض من كل ناحية:

_ "ها هو الميدان الكبير، ميدان التحرير، خطوات معدودة، وتصل إلى الكوبري"..

كان اتساع الميدان الذي يَغُصُّ بالناس يُظهر رقعة كبيرة من السماء، وحدَّثت نفسي:

_ "الزحام في كل مكان، أي مدينة هذه؟ نفس الناس، نفس الوجوه المتحجرة، نفس العيون ذات النظرات الصارمة التي لا تتجاوب مع أحد. نفس الأجساد، أجساد مرهقة، وأجساد رشيقة، لابد أن أنتظر بعض الوقت، حتى تنصرف هذه الجماهير"..

كان التعب قد هدَّني؛ خارت قواي؛ وثقلت رأسي. تمنَّيْتُ أن أجلس؛ لم تعد ساقيَّ -المكدودتان- تقويان علي حمل جسدي. جلست على الرصيف ساندًا ظهري على (عامود) الإنارة.. مرَّت عدة دقائق، وكانت مناشير العالم لا تزال تنشر عظامي. وفجأة؛ رأيت شاربًا طويلاً، وهراوة تتدلَّى من خصر ضخم ، وحذاءين كبيرين يتنقلان تجاهي بإصرار. انتفضت واقفا لأغادر المكان؛ وفي هذه اللحظة؛ ارتطمت يدي بجيب البنطلون، سمعت صَلْصَلَة مكتومة، قلت في نفسي:

_ "إنها القروش المتبقّية، سأعطيهم لأي محتاج؛ فلا حاجة لي بهم، ألا يوجد سائل هنا؟؛ فلأدخل هذا المقهى لأُرِيح جسدي المتهالك، فإن القروش المتبقية تكفي ثمنًا لمشروب على أية حال"..

كان المقهى يعجُّ بالبشر؛ يَلِفُّهُ الدخان. ارتميت على أحد المقاعد في ركن منزو؛ متكئا على المنضدة، ووضعت رأسي بين كَفَّيَّ.. ولما رفعت وجهي؛ رأيت في المرآة المعلقة أمامي شبحًا بارز عظام الوجه، رث الملابس. ورَنَّتْ في أذني كلمات تافهة:

_ " تعال الأسبوع القادم.. تعال بكرة.. تعال.."

وزاغت نظراتي؛ وامتزجت المرئيات أمامي. ومن خلال الدخان الكثيف؛ تراءت لي أشباحًا مخيفة؛ كانت تمد أيديها نحوي؛ ونظرت إلى أسفل -تحت الأقدام- فرأيت بئرًا يملأه (الدود). وكانت الأشباح تدفعني لأقع في أعماق البئر المظلمة؛ ليأكلني (الدود):

_ "لا أريد أن أكون طعامًا للدود؛ سوف يأكلني السمك"..

وانتبهت علي صوت حاد:

_ "طلبات البيه"

كان (الجرسون) منحنيا حتى كاد فمه يلامس وجهي. أجبته بسرعة قبل أن أفقد الوعي من تأثير الرائحة الفظيعة التي انسكبت من فمه:

_ "شاي لو سمحت"..

انصرف (الجرسون)؛ ورحت أتفرس في الوجوه من خلال الدخان. هالني أن كل العيون كانت حمراء قانية؛ وكانت تنظر إلى أشياء لا أعرفها. الْتَفَتُّ إلى المنضدة المجاورة، فرأيت كوبًا مليئًا بالدم. وكان لون الدخان قد تحول إلى الأحمر القاني. شعرت بقشعريرة. وانكمشت متداخلاً .. شد انتباهي صياح (الجرسون) أمام أحدهم:

_ "طلبات السيادة"..

وبحركة لاإرادية، وضعت يدي في جيبي؛ فوجدته خاويًا، إلا من (علَّاقة) المفاتيح، فحدثت نفسي حانقًا:

_ "هل نسيت؟ لقد أعطيت ما كان معك لبائع الطعام؛ وقد أكْمَلْتَ ثمن رغيفه بدموعك؛ من حسن حظك أن (الجرسون) لم

يأت بالشاي بعد، فلتخرج بهدوء ، قبل الوقوع في الورطة"..

في التو واللحظة؛ انتفضت واقفًا لأخرج من المقهى؛ وددت لو كان ذلك جريًا، ولكنني فضلت الخروج متمهلاً ؛ فقد كانوا يتتبعونني بنظراتهم. وعند اقترابي من باب الخروج، سمعت صوتًا خافتًا كأنه الوهم:

_ "شَكْلُه مَبَاحِثْ".

سِرْتُ ورأسي شبه خالية؛ بجوار أشجار منتصبة في سكون. كان المشاة أعدادًا قليلة؛ متناثرين على الأرصفة؛ أما السيارات فكانت كثيرة؛ كلها مسرعة كالسهام المنطلقة:

_ "السيارات لاتهم"..

واصلت المسير.. تردَّدَت داخلي أصوات حزينة؛ وشعرت بفتور شديد؛ وأحسست بدوار بطيء؛ والتصقت قدمي بالأرض؛ حدثت نفسي بانكسار:

_ "وهل هناك حل آخر؟"

جاهدت في مواصلة السير؛ وقلت بعزم:

_ "لقد قررت أن أصل".

كنت أجد مشقة في المشي؛ ولكن انحدار المدينة كان يساعدن.. وأخيرًا أشرفت على (الكوبري)، وهاهما الأسدان الرابضان في سكون؛ وكأنهما ينظران إليَّ بأعين مسحتها يد مجهولة؛ وعندما كنت في محاذاتهما، رأيت دموعًا سوداء تترقرق في مآقيهما.. كان (الكوبري) واسعًا؛ طويلاً؛ ليست له نهاية؛ وخاليًا من المشاة:

_ "يا فرحتي"..

حاولت أن أرى ما بعد (الكوبري)؛ دون جدوى، وأغمضت عَيْنَيَّ، رأيت من خلف جفوني المطبقة، أشجارًا مورقة؛ بينها منزل صغير، تقف (ليلى) في شرفته.. تحسست جسدي، شعرت أنَّه يتلاشى، وأن الهواء سيقذف بي بعيدًا ، فأمسكت بالسياج، وحاولت أن أواصل السير معتمدًا عليه، ناظرًا إلى هُوَّة سحيقة مظلمة، هُيِّئَ لي أنها تغص بأشباح مرعبة؛ وأن سلاسل حديدية تشدني لأسقط فيها.. عاودت النظر إلي المدينة؛ وإلى الشوارع الممتدَّة، فتراءى لي الميدان الكبير على البعد بأضوائه المتلألأة.. انشق الفضاء أمامي عن بياض فِضِّي؛ ازداد تألقًا. وبدا لي أن جماهير غفيرة تزحف نحوي بإصرار. وكان (الكوبري) قد ازداد

اتساعًا.. وترنحت المدينة بشدة؛ ومالت نحو الهوَّة السحيقة. وقبل أن تدركني الجماهير الزاحفة، سقطت المدينة، وسَقَطْتُ معها...

جذبتني أصوات متداخلة بقسوة إلى انتباه لاهث؛ فتحت عيني مندهشًا، كانت عيون كثيرة تُحدِّق في جسدي الملقي على السرير؛ قلت محدثًا نفسي:

_ "لاتهمني نظراتهم".

وأرهفت السمع؛ فَتَبَيَّنْتُ عدة كلمات تقاطرت على أذني بإلْحاح:

_ "إنه العائد إلى الحياة -الحمد لله- كُتِبَ له عمر جديد..أَنْقَذُوه من الغرق في اللحظات الفارقة بين الموت والحياة".

obeikan.com

obeikan.com

"يومه الأول في مدرسة البندر"

ينـزع حزامـه -الجديـد- مـن وسـطه، ويمـرره في يـد حقيبتـه -الجديـدة- المنتفخـة بالكتـب ليحملهـا على ظهـره؛ بعـد أن كَلَّـتْ يداه. ويمـر العـابرون بجـواره؛ يمرقـون بسـرعة في صمت؛ قـاطعين أشـعة الشـمس الصـفراء المحملـة بـذرات الغبـار؛ الآتيـة مـن بين فُرُجَـات البنايـات العاليـة؛ ويختفي بعضـهم فجـأة تحـت مظلات الـدكاكين أو وراء النواصـي.. حـاول تجاهـل حملـه الثقيـل بركـل حجـرًا صغيرًا اعترض طريقـه، وبعـد عـدة ركلات، يتركـه في مكانـه، ويواصـل السـير؛ ناظرًا إلى الناس المقبلين عليه؛ إلى عيـونهم التي تنظر إلى لاشيء؛ يبـدو أن لهـم أفكارهم كمـا أن لـه أفكاره؛ وأنهـم يجترونها مثله:

_ "هيْرُوحْ المدرسة الثانوي في البندر؟ ويسكن لِوَحْدُه؟ الواد لِسَّة صغَيَّرْ؛ مكمَّلْشي اربعتاشر سنة"... هذا ما قالته أُمُّه.

_ "يعني كفاية علام ع الإعدادية؟! يا وْلِيَّة الواد معدْشِي صغَيَّرْ: ده بقي راجل"... وهذا ما قاله أبوه.

قالت أُمُّه وعلى وجهها ابتسامة كبيرة:

_ "أيوه يا أبو محمد الواد كبر ربنا يخلِّيه"...

استأذن أبوه من الناظر في (الفسحة الكبيرة)، وبعد تخطِّيهما عتبة بوابة المدرسة، مد يده ليحمل عنه الحقيبة. وليتغلب علي جلبة الشارع وعلى صوت السلسلة ذات القفل الكبير؛ الذي أحدثه (البواب) عندما شرع في إعادة (البوابة) إلى سيرتها الأولى، قال زاعقًا:

_ "هِمّ شوِيَّة؛ عشان الحق أوَرّيك أُوضْتَكْ، وأرجَّعك قبل ما تخلص الفسحة".

مشى وراء أبوه -صامتًا- في الشارع الكبير الذي يَعجُّ بالسيارات وعربات (الكارُّو) والحمير أيضًا. وانحدرا إلى شارع صغير؛ ومنه إلى شارع أصغر كالحارة.. توقف أبوه فجأة أمام أحد البيوت؛ وأشار إلى نافذة بُنية عالية قائلاً:

_ "دي أوضْـتَك اللي أجَّرْتهـا لـك، واشـتريت لـك سـرير سِـفَري ومكتب".

_ "شكرا يابا".

_ "الزِّوَّادة هناك؛ لما تزهق من الجبنة والدُّقَّة؛ ابْقَ شَبْرَأ نفسك بالطعمية مرة، والفول مرة".

_ "حاضر يابا".

_ "المفتاح مع السِّتْ جارتك، لما تِوْصَلْ آخر النهار خُدُه منها، اوْعى يضيع منَّك، حُطُّه بين الجلد واللحم".

_ "حاضر يابا".

_ "خُدْ بالك من الطريق، إوْعى تُووه وِانْتَ راجع من المدرسة".

_ "رَبِّنا يُسْتُرْ يابا".

ألحَّت عليه وساوس مفاجئة، تسارعت دقات قلبه، وحدَّث نفسه:

_ "الحارات شكل بعضها؛ خايف أتوه عن البيت اللي فيه أُوضْتي".. شده من وساوسه صوت أجش:

_ "إيه يا فلاح! معاك كتب جديدة! شايلْهُم علي ضَهْرك! هُوَّا انت شايل حِمْلْ برسيم؟".

شعر بالخوف -وإن تظاهر بعكس ذلك- فقد كان يعترض طريقه غلام ضخم الجثة، كبير الرأس، عريض الفَكَّيْنْ، غليظ الشفتين.. حاول التنحي جانبًا؛ ولكنه سبقه بضربة قوية بكتفه في الكتف المنهك ، فسقط على الأرض؛ وتبعثرت كتبه. راح الغلام يركل الكتب المبعثرة بقوة، لم يدع كتابين فوق بعضهما. ألجمته المفاجأة، وسال العرق غزيرا على وجهه. وتمادى الغلام في ركل كتبه، انهمرت دموعه وصرخ مُنْهَارًا:

_ "يا لَهْوِي يابا، كتبي، كتبي، يا لَهْوِي".

_ "بَسْ يا وَلَدْ، مالك وماله؟ مِشْ حرام عليك تهدل كتبه كده، ابن ميين ده؟".

_ "دا التلميذ الفلاح، ساكن جديد هنا"..

توقف عن الصراخ؛ وتمنَّي لو يُقَبِّل يد هذا الرجل العجوز منحني الظهر الذي رآه آتيا نحوهما؛ يمشي بصعوبة معتمدا على عصاه؛ والذي رفعها -عندما وصل- في وجه الغلام يهدده بها ويقول:

_ "ساكن عند ميين؟".

أجاب الغلام وقد وضع يديه علي رأسه اتقاءً للضربة الوهمية:

_ "في بيت الشيخة المِسْتَرْجِلَة".

انقبض قلبه بشدة؛ وحدث نفسه:

_ "لِيه يابا؟ مَلَقيتْشي غير أُوضِة الشيخة المِسْتَرْجَلَة؟".

وبينما كان منشغلاً في جمع كتبه المبعثرة الملطخة بالطين؛ سمع صوت رفيع كمأمأة العنزة:

_ "الفلاح.. هِيئْ هِيئْ.. الفلاح.. أحب الفلاح.. هِيئْ هِيئْ.."

وهو جالس القرفصاء، ودموعه مازالت على خديه، وقد فرغ من إعادة كتبه الملطخة إلى الحقيبة، رفع رأسه إلى أعلى،

obeikan.com

فـرأى عـن يمـين الرجـل العجـوز فتـاة منكوشـة الشـعر، يسـيل اللعـاب مـن شـدقيها، تتـرنح وتتمايـل، فيترجـرج ثـدياها تحـت الجلباب، وعن يساره يقف الغلام واضعا يداه خلف ظهره.. يهش العجوز الفتاة بعصاه؛ ويقول وهو يساعده على النهوض بحمله من الكتب:

_ "تِعْرَفْ تِوْصَلْ ولّا آجِي معاك؟".

_ "شكرا يابا الحج؛ أنا عارف البيت".

وهو يجر قدميه بصعوبة؛ سمع صوت الفتاة آتيا من خلفه:

_ "الفلاح.. هِيئْ هِيئْ .. أحب الفلاح".

وقـف أمـام بـاب الشـيخة (المِسْـتَرْجَلَة). طـرق برفـق؛ وانتظـر بعـض الوقـت.. عـاود الطـرق.. قـرع بعنـف.. اختلـج قلبـه.. فقـد التفكيـر لحظـة؛ ولكنـه تشـبث بالهـدوء.. وضـع الحقيبـة بـين ساقيه، وأخذ يدق الباب بيديه الاثنتين.. سمع صوت امرأة:

_ "عاوِزْ ميين يا حبيبي؟"

_ "آني ساكن هنا"

_ "ساكن هنا؟؛ هِيئْ.. هِيئْ.. هيئ؛ تعال يا حبيبي".

ترك باب الشيخة (المِسْتَرْجَلَة)، وذهب إلى امرأة سمينة جالسة على الأرض في دكان في الجهة المقابلة، ترتدي جلبابًا أسود، ساندةً ظهرها بالحائط، مادةً رجليها أمامها، وبجوارها رجل نحيل، منكفئًا على ماكينة خياطة. وعندما وصل إلى عتبة باب الدكان، بادرته قائلة:

_ "إيه اللي أخَّرَك يا حبيبي؟ كنت فين؟"

_ "أصل الواد.."

_ "إيه اللي ودَّاك البيت ده؟"

_ "أبويا هو اللي."

_ تعال يا حبيبي؛ حرام يا بني، تعال يا ضنايا".

وجذبت يده، وقالت بعد تخاذله:

_ "إيه؛ أُمَّك بِتْوَكِّلك رَدَّة؟".

obeikan.com

وأدارت جسمها المسنود على الحائط إلى طاولة ماكينة الخياطة بجانبها؛ ثم وضعت يديها على حافتها وتعلقت بها لتعينها على القيام، بدلاً من يده المتخاذلة. وجذبته إلى الداخل عبر باب صغير -من داخل الدكان- يفضي إلى دهليز مظلم؛ فصرخ مرعوبًا:

_ " عايْزَة منّي إيه؟"

_ "تعال يا حبيبي أفَرَّجَك على أُوضَة أحسن من أُوضَة الشيخة المِسْتَرْجِلَة".

ولم تأبه بالرجل النحيل -المنكفئ على ماكينة الخياطة- الذي كان صوته واهنًا بسبب سعاله المتواصل:

_ "يا أُمّ عَتْرِس.. يا أُمّ عَتْرِس".

كانت متجهة في حالها صوب (لمبة غاز نمرة خمسة)، محطوطة في طاقة مرتفعة في وسط الدهليز، رفعت شعلتها ثم واصلت المشي في عمق الدهليز. وبعد عدة خطوات، جذبته إلى داخل حجرة ضيقة بابها منخفض،فحدث نفسه مرعوبًا:

_ "هِيَّ حَتِحْبِسْني هِنا؟"..

رفعت شعلة (لمبة غاز) معلقة بمسمار، وأسندت ظهرها على الحائط تحتها.. ربتت على رأسه، وقالت وهي تشير إلى غلام ينام على سرير بجوار الحائط المقابل:

_ "إيه رأيك يا ضنايا؟ مش الأُوضَة دي أحسن من أُوضَة الشيخة المِسْتَرْجِلَة؟ ابني ده اللي نايم على السرير قُدَّامَك؛ هتبقوا مع بعض وتذاكروا سوا؛ اعتبره زي اخوك، بدل ما تقعد لوحدك".

نظر إلى ابنها الذي يتمرغ في السرير متعجبًا لنومه في مثل هذا الوقت بين المغرب والعشاء.. فوجئ بيديها على كتفيه؛ وجد رأسه محصورًا بين ذراعيها المختنقان في كُمَّيْ الثوب الأسود؛ وبين صدرها الضخم الذي حجب عنه الرؤية. وقالت وهي تهُزُّه بعنف:

_ "إيه؟ مردِّيتْشِي عَلَيَّا؟ باين عليك مصَمِّمْ على السكن عند الشيخة المِسْتَرْجِلَة".

بدون أي تفكير وبما تبقى لديه من قوة، أفلت من قبضتيها، وخرج يجري حاملًا كتبه علي كتفه. وقال عندما وصل إلى نهاية الدهليز:

_ "آني رايح أُوضْتي اللي أبويا أجَّرْهالي".

وكان صوتها يلاحقه مع مَصْمَصَة شفتيها:

_ "دي حتى بيطلع فيها عَفْرِيتْ".

تخاذلت ساقاه عن حمله. وشعر بأصابع من حديد تهرأ أمعائه. وخرجت من فمه حشرجة أليمة:

_ "عَفْرِيتْ؟ ".. وقبل أن يتخطى عتبة باب الدكان؛ اخترقت أذنه كلماتها:

_ "مِراتْ الفَرَّان محروقة في الأُوضَة"..

انتصب شعر رأسه، وارتجف جسده، وتسارعت دقات قلبه، وغمر العرق البارد وجهه ورقبته وسائر جسده. وقال ملتاعًا وهو يجري في الحارة، تحت السماء السوداء؛ حيث لا تصل أضواء الشارع الكبير:

_ "أروح فِين دِلْوَقْتِي؟.. أنا عايز أرَوَّح".

وعندما مَرَّ أمام بيت الشيخة (المِسْتَرْجَلَة)، قاوم الرغبة في البكاء، ولكن الدموع تساقطت من عينيه عندما باغتته شهقات متتالية.. وصل إلى آخر الحارة، ثم ارتد عائدًا إلى نقطة البداية،

ولكنه أبطأ من جريه ثم مشى على مهل، وعندما انتظمت أنفاسه، حدّث نفسه:

_ "أرُوح أُوضْتي، وأنام على طول، النايم مبيشوفشي عفاريت".

طرق الباب.. سمع صوت وقع أقدام وهَمْهَمَاتْ مبهمة. شده التحفز، شعر بتوقف دقات قلبه، ثم اندفاعها من جديد في عنف قاس رهيب. حاول ابتلاع ريقه بعد أن جف حلقه، وحاول السيطرة علي جسده المرتجف.. وأخيرًا أوضحت الهَمْهَمَات عن نفسها:

_ "حيّ .. هُوَ.. حَيّ .. هُوَ..".

اقتربت الهَمْهَمَات. وأحدث فتح الباب جلبة مفزعة:

_ "تِكْ .. تِك .. تِكْ .. تِكْ .. إيييييي".. ازدادت الهَمْهَمَات وضوحًا:

_ "الله حَيّ .. حَيّ .. مِيينْ؟".

تأكد أنه أمام الشيخة (المِسْتَرْجَلَة)؛ فقد رآها في الضوء الخافت الآتي من الداخل ترتدي جلبابًا أبيض وفوق رأسها عمامة خضراء ضخمة. قال بعد أن جاهد في ابتلاع غصَّة كبيرة:

_ "أنا ساكن جديد هنا، أُوضْتي فوق".

_ "حَيّ؛ حَيّ..إيه اللي أخَّرَك يا بني؟ .. حَيّ؛ حَيّ".

_ "أصْلْ ال.."

_ "اطلع على أُوضْتَك، تعال ورايا، حَيّ، حَيَ".. وقالت وهي تنحرف يمينًا:

_ "السِّلِّم قُدَّامك يا بني، حَيّ، حَيّ، الله حَيّ".

رأى شريطًا من النور، ازداد اتساعًا، دلفت منه إلى حجرة خافتة الإضاءة، لمح ارتفاعًا بسيطًا في صدرها، دهمته شهقات متلاحقة، ضغط على شفتيه بعنف. وأخذ ينقل قدميه بحذر وهو يتحسس درجات السلم -الذي عاد مظلمًا بعد أن أغلقت بابها- معتمدًا على (الدرابزين) بيده الخالية، ومضى صاعدًا يجر كتبه باليد الأخرى، تقابل أنفه رائحة منفرة، وتلاحقه هَمْهَمَات الشيخة (المِسْتَرْجَلَة). يُشعره الظلام الحالك كأنه يهبط في بئر ليس له قرار ورغم حذره الشديد، وقع على السلم، اصطدمت ساقه بالدرج الصلد. حبس آهة وواصل الصعود مترنحًا؛ وقد ملأ العرق

عينيه، سائلا من جهته.. ضرب بكتفه بابًا عن يساره على إحدى (الباسطات).

دخل بحذر؛ متلمسًا طريقه بقدميه ويديه. وقع على وجهه، ارتطم جسده بالأرض، زفر بآهة عميقة عندما انحشرت قدمه في حفرة ضيقة والتوت ساقه. اخترقت خياشيمه ونفذت إلى رأسه روائح كريهة. ووقعت يده على شيء لزج كالطين فانفجرت الروائح المقززة بضراوة. حاول جذب قدمه المحشورة في فتحة المرحاض، فلم يقوى على ذلك. مد يده في الفتحة لِيُخَلِّصُهَا؛ فغاصت أصابعه في اللزوجة. وبعد فشله، تحول البكاء المكتوم إلى نحيب.. وبكل ما تبقى من قواه؛ جذب قدمه المحشورة، التي خرجت بدون (فَرْدَة) الحذاء فحاول تمرير أصابعه من حولها، ولكنها كانت محشورة تمامًا. أخذ يضغط على الـ(فَرْدَة) من الأمام ومن الخلف، ثم يجذب إلى أعلى؛ إلى أن نجح في سحبها، ولم يلتفت إلى اللزوجة التي تغطيها.. وخرج من المرحاض يجر كتبه باليد الخالية وواصل الصعود.. فاجأه انكسار حدة (العتمة) وانتهاء السلم. ارتمى على الأرض، ثم استلقى على ظهره. بَهَرَهُ لمعان النجوم التي تملأ السماء الصافية وهي تبرق في صمت.. اعتدل قاعدًا، وكتبه بجواره مصبوغة بالسواد، ويداه ملطختان بطبقة سوداء لزجة، وراح ينظر إلى البيوت المتراصة بلا عدد.. شعر بألم

شديد في جبهته، تحسسها بحذر، التقت أصابعه بالدم المتجمد على جبهته ووجهه ورقبته. وانهمرت دموعه سائلة على خديه، مختلطة باللزوجة والعرق والدم المتجمد ثم انحدرت إلى فمه، فبصق ما تسرب إليه، يكاد يتقيأ معدته الخالية. اجتاحت جسده السخونة، وشعر بالدوار؛ هُيِّأَ له أن الجدران تتدافع لتسقط عليه وأن الأرض ترتفع لتقذف به بعيدًا...

انتبه بعد مدة لا يعلمها، تلفَّت يمينًا وشمالاً، رأى هناك غير بعيد عنه ثلاثة أبواب على صف. قام يجر جسده مستندًا على حائط السور؛ يحمل (فَرْدَة) حذائه بيد؛ ويجر كتبه باليد الثانية، وحدث نفسه:

_ "يا ترى فين باب أُوضِة السِّتْ اللي معاها مفتاح أُوضْتِي؟".

وعندما وصل إلى الباب الأول دفعه برفق؛ وجده مغلقا، ذهب إلى الباب الذي يليه، فوجده كالأول، وإلى الثالث، وجده موصدًا أيضًا. شعر بدوار كاد يوقف عقله عن التفكير.. وبينما كان واقفًا يفكر في الخطوة التالية؛ انفتح الباب الأوسط وبرزت امرأة قصيرة؛ كانت تتثاءب وتفرك عينيها. شهقت بحدة؛ ثم ضربت صدرها قائلة وهي تغلق فتحتي أنفها بإصبعيها:

_ "انت؟ إيه اللي أخَّرَك لِدِلْوَقْتِي؟ كنت فين؟.. وإيه الدَّم اللي مغَرَّقْ وِشَّكْ ده؟ وإيه القرف.. أبوك عطاني المفتاح من يومين؛ أنا قلت انت مش جاي".

وربتت على ظهره بيدها الأخرى؛ وواصلت الكلام بصوت (أخنف):

_ "جِتِّتَكْ سُخْنَة أوي يا كِبْدِي؛ الحِمِوّ طالع من الهدوم".. وقالت وهي تفتح الباب الأول:

_ "اغسل وِشَّكْ يا ضنايا من الحنفية اللي قُدَّامَك في آخر الطُّرْقَة؛ على ما أكون قِدْت لك اللمبة".

متحاملاً على نفسه، اتجه إلى الصنبور؛ تاركًا الكتب و(فَرْدَة) الحذاء أمام الباب؛ و(طَسَّ) وجهه بالماء ما جعل عقله يصفو قليلاً. ودخل حجرته من بابها الموارب حاملاً كتبه و(فَرْدَة) حذائه؛ ولكنه أحسّ ببعض الرهبة عندما فوجئ باتساعها؛ لدرجة أن السرير (السِّفَري) والمكتب كانا منزويان في أولها على يسار الباب يليهما الفراغ الواسع؛ تغطي أرضيتها بلاطات كبيرة؛ بعضها متآكل الأحرف، والبعض الآخر ناتئ. وكانت النافذة ذات لون بني مائل إلى السواد، و(دُرَفُها) متآكلة الأركان. وكانت

الحوائط -عندما نظر إليها على ضوء اللمبة الأصفر- لا لون لها؛ مليئة بالمسامير؛ ملطخة ببقع كبيرة تبدو كرؤوس رجال ونساء وجمال وحمير وكلاب.. رمى كتبه و(فَـرْدَة) حذائه على الأرض؛ وجلس على حافة السرير ؛ وخلع (فَرْدَة) حذائه الأخرى؛ وقذفها بجوار أختها، وارتمى على السرير ممددًا على ظهره، وراح ينظر إلى السقف المعمول من ألواح الخشب.. انتشرت في الحجرة سحابة كثيفة حجبت ضوء اللمبة. تشتتت السحابة بعد فترة، وصارت بيضاء شفافة؛ رأى فيها وجه أمه وسمعها تقول:

_ "هَيْـرُوح المدرسـة الثـانوي في البنـدر؟ ويسـكن لوحـده؟ الـواد لِسَّة صغَيَّر؛ مكَمَّلْشِي أربعتاشر سنة".

تبددت السحابة الشفافة بعد ثوان قليلة؛ وذهب وجه أمه؛ وبقي أمامـه وجـه صـارم متصـلب. تأمَّلَهـا وهي منحنيـة عليـه، بوجهها المستدير الأبيض، وعينها الواسعتين المُكَحَّلَتين. ففاجأته بوضع يدها على صدغه، اقشعر جسده من برودتها. مصمصت شفتيها وقالت:

_ "جِتِّنَك نار يا مسكين"... والنار تتوهج داخله وجسده ينتفض رغمًا عنه، أخذ ينظر إلى يدها وهي تمسح جبهته بخرقة مبللة

بسائل لزج بعد أن (تَغطُّهَا) في طبق بجواره على الوسادة؛ وإلى شفتها تتحركان مع حركة يدها:

_ "جوزي.. بيشتغل في الفرن.. طول الليل".

بعد أن انتهت من مهمتها، انتصبت من انحناءتها، والتقطت طبقها الفارغ، وقالت وهي متجهة نحو الباب:

_ "انت بئيت كُـوَيِّسْ، المفتاح على المكتب، عايز أي حاجة يا ضنايا؟".

انخلع قلبه، وقال بصوت متهدج:

_ "خَلِّيكِي معايا".. قالت من خلال ضحكاتها المجلجلة:

_ "يا مكار وجوزي اللي زمانه جاي، أقُولُّو إيه بقي لما يلاقيني معاك هنا؟".

وخرجت دون أن تلتفت وراءها غير متوقفة عن الضحك.. انقلب على جنبه الأيمن، رأى في طرف الحجرة البعيد ظلالاً للبلاط الناتئ ترسم أشكالًا مخيفة. حاول التغلب على الخوف بِذَمّ شفتيه بعنف، وبإغماض عينيه. وفي محاولة لإعادة الهدوء

obeikan.com

إلى نفسه، انقلب على جنبه الأيسر بحيث يدير ظهره للطرف البعيد ويصير وجهه للحائط، وأغمض عينيه، ولكنه رأى من خلف جفونه المطبقة نساء ممزقي الملابس منكوشي الشعور؛ يصحن في نفس واحد:

_ "القتيلة.. لقتيلة.. القتيلة".

حاول الذهاب بأفكاره بعيدًا.. حرّك ذراعيه.. غير من وضع ساقيه.. انقلب على ظهره ونظر إلى اللمبة وإلى نورها الأصفر الباهت. اعتدل من رقاده. جلس متكورًا على نفسه. أغمض عينيه. وردد مع انتفاضات جسده المحموم النشيد الإنجليزي الذي أخذه في سنة أولى إعدادي:

_ "وانْ تُو - فاصِنْ ماي شُو؛ ثْرِي فُورْ- شَطْ ذا دُور؛ فايِفْ، سِكْسْ -بِكْ أبْ ستِكْسْ؛ سِفِنْ إيِتْ- لايْ ذِمْ سْتريتْ؛ نايِنْ تِنْ -آجودْ فاتْ هِنْ.. وانْ تُو- فاصِنْ".. توقف عند سماعه صوتًا خافتًا؛ رتيبًا كالأنين:

_ "هُوَ هُوَ هُوم، آى آى".

فتح عينيه؛ رأى شُعلة اللمبة تهتز بشدة. انحدر بنظراته إلى طرف الحجرة البعيد؛ وحدَّق -فَزِعًا- في (العتمة) الرابضة هناك. طال تحديقه في كتلة سوداء تبدو كامرأة راقدة. استدار قبالة الحائط. ارتطمت يده برأسه؛ فانفتح الجرح في جبهته فنزف الدم غزيرًا، واشتعلت النار. شعر أن الأرض ترتفع، وترتفع، وشيء ثقيل في جوفه يهبط، ويهبط، ولسانه كتلة حديدية لا يستطيع أن يحركه، والصوت الخافت يعلو:

_ "هُوَ هُوَ هُوم؛ آى آى".

كانت شُعلة اللمبة تحتضر. رأى أشياء غريبة تتراقص على الجدار. استدار ناحية طرف الحجرة البعيد، فوجد (العتمة) تزحف باتجاهه، ولكن معالم الجثة الرابضة هناك ازدادت وضوحا رغم (العتمة). حاول النهوض متناسيًا رأسه التي ستنفجر والنار المتأججة في جسده؛ ولكنه لم يستطع تحريك جسده للنزول من السرير. وكانت الجثة المضطجعة قد استدارت تجاهه وعلا أنينها:

_ "هُوَ هُوَ هُوَ؛ آى آى"

أحس أنها تبتسم، ثم تقهقه. رأى أسنانها ناصعة البياض؛ تبرق في (العتمة). حاول أن يحجب وجهها عن عينيه بوضع يديه على وجهه؛ وكانت ما تزال تُقَهْقِه. وعندما رفع يديه عن وجهه، وجد عينيها تبرق في تحد، ارتجف جسده بعنف. ورأى جدران الحجرة تهوي على جسده لتسحقه؛ فَهَمَّ بالخروج لينجو بنفسه، ولكنه وجد الشبح ملتصقًا به؛ عندها انفرجت شفتاه عن صيحات ألم وآهات استرحام. وكانت أعضاء جسمه مُتَصَلِّبة؛ ولكن الشبح ما كان ليرحم؛ بل راح ينهش لحمه. أراد الفرار؛ ولكن أين القوة؟! ازداد لهيب أنفاسه، تأججت النيران في جسده، سمع قهقهة حادة، فتح عيناه ببطء وحذر وأغمضهما بسرعة.

كان وجه الشبح أمامه. عاد الدُّوار إلى رأسه. أراد أن يُخرج الصراخ المحتبس في حلقه دون جدوى، كان جسده متيبسًا متصلبًا مشدودًا في مكانه على السرير ؛ ولسانه متضخمًا يملأ فمه؛ وحلقه جافًا، ودقات قلبه لها دوي مرتفع، وقدماه ثقيلتان؛ والشبح ملتصقا به. تمَلَّصَ من الشبح بعد أن غافله، جَرَّ قدميه وحمل رأسه. واندفع نحو الباب لاهثًا غير مصدق أن النجاة بين يديه. وجرى مقاومًا ثقل قدميه، كان لوقع قدميه صدى عميق أجوف. اصطدمت رأسه بالجدار، تراجع مترنحًا. وعاد ليصطدم

به من جديد؛ خيل إليه أن الشبح يُقَهْقِهُ ساخرًا. اكتشف أنه مغمض العينين ففتح عيناه. كانت النافذة مفتوحة، والباب مواربًا؛ تركته زوجة الفران هكذا عند خروجها، وهو يبكي، جذب الباب؛ تحاصره (العتمة) ويعتصره الألم، اتجه نحو السلم، وترك جسده ليجذبه إلى أسفل؛ منكفئًا على وجهه يَتَفَجَّرُ منه الدم ...

سمع - من خلال أنينه- أزيز باب يفتح، ثم حَشْرَجات مُبْهَمَة:

_ "هُومْ هُومْ؛ آه"... وتحولت الحَشْرَجات إلى هَمْهَمات:

_ " هُوَ هُوَ هُوَ .. حَيّ حَيّ "... ثم إلى كلمات واضحة:

_ "يا ساتر يا رب؛ مالك يبني؟ رُدّ عَلَيَّ؛ رُدّ على عَمَّك الشيخ".

امتدت يد الشيخة (المِسْتَرْجَلَة) لتقلبه على ظهره. رأى عمامتها الخضراء تقترب من وجهه وكانت مستمرة في الكلام:

_ "حَيّ حَيّ حَيّ، الله حَيّ، الله حَيّ، يا ستّار يا ستّار؛ مسكين مسكين، الجروح، الحُمَّي باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء يأتيك، باسم الله أرقيك، من عين صابِتَكْ، من عين تِآتِيكْ، صغيَّر على الغُرْبَة يا ابني".

انسابت دموعه. وأحَسَّ بخَدَر يسري في أوصاله.. كان الباب الضخم بجواره؛ رأى من خلال فُرْجَته بصيصًا من ضوء النهار. سحب جسده من بين يدي الشيخة (المِسْتَرْجَلَة)؛ حيث كانت تسكب رُقْيَتِها، وسَعَت يده الواهنة فُرْجَة الباب، وانْسَلَّ خارجًا ينهنه.. كان ضوء النهار يُطِلُّ على الأسطح العالية. ولم يكن بالزقاق حياة. ونفذت إلى صدره نسمات باردة. كفَّ عن البكاء. امتلأ بشعور مبهم لا يعرف كُنْهَه.. وتبدد سكون الحارة على إثر صيحات مفاجئة:

- "الفلاح .. هِيئْ هِيئْ .. الفلاح .. أحب الفلاح .. هِيئْ هِيئْ".

"زوجة الإسكافي"

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، في تلك الليلة الشتوية شديدة البرودة؛ عندما كنت أتقلب في فراشي -أعاني من الأرق- في حجرتي الضيقة المتوارية في زوايا بيتنا. أحسست بضيق في التنفس، تطور إلى شعور بالاختناق. قررت القيام من الفراش، والخروج من البيت إلى الخلاء. وضعت معطفي على كتفي وخرجت. مشيت على مهل بجوار الجدران لأتفادى الأوحال التي تملأ (نهر الزقاق)؛ واتجهت إلى الخلاء -عبر الأزقة- قاصدا شارع (داير الناحية). شعرت ببعض الانتعاش بمرور نسمات الهواء البارد على وجهي. احتواني الظلام الدامس، وأطبق السكون الشامل على أنفاسي، فلم أسمع أي صوت، حتى ولا نباح كلب ضال. شعرت بانقباض مفاجيء،

وأحسست برهبة الليل، فندمت على خروجي في هذا الوقت المتأخر؛ وقلت في نفسي:

_ "فعلا (الليل غول)؛ على رأي المثل".

تعثرت قدمي بكتلة سوداء حسبتها كلبًا ينام متكورًا بجوار الحائط، وكدت أقع على وجهي في الوحل. انتابني الفزع وانتصب شعر رأسي؛ واجتاحت جسدي رعدة قوية، قررت العودة إلى البيت. وقبل أن أهمُّ بالرجوع، سمعت صوتًا مكتومًا؛ تبينت أنه أنينا متقطعًا. اقتربت بحذر؛ وهمست:

_ "مِينْ؟"

_ "سَعْ .. دِيَّة".

_ "سَعْدِيَّة؟ سَعْدِيَّة مِينْ؟"

_ "مِرَاتْ لِسْ.. كَافِي".

تيقنت من رعشة صوتها أنها ترتجف بشدة؛ نزعت معطفي وألقيته على كتفيها؛ وقلت متصنعًا الاتزان وقد امتلأت عيني بالدموع:

_ "مَفِيشْ بِيتْ تِدَّارِي فِيهْ يا سَعْدِيَّة؟"

ساعدتها على النهوض، ودفعتها أمامي قائلاً:

_ "تَعَالِي عَنْدِنَا".

حاولت مقاومتي وهي تتمتم من خلال أنينها:

_ "سِيبْنِي يا محمد أفندي رَبِّنَا يْخَلِّيكْ، اعْمَلْ مَعْرُوفْ، أَحْسَنْ هيْدَوَّرْ عَلَيَّ، دِهْ مُجْرِمْ مَبْيِرْحَمْشِي".

قلت بحسم وأنا أدفعها دفعًا:

_ "يَعْنِي إِيهْ؛ لا يُمْكِنَ اسِيبِكْ فِي البَرْدِ دَهْ".

مشت معي بخطوات متثاقلة، في صمت. قلت محاولاً قطع الصمت الذي يحتوينا:

_ "احْكِيلِي يا سَعْدِيَّة؛ إِيهْ الِّلي حَصَلْ؛ وِلِيهْ خَرَجْتِي مِن الْمَضْيَفَة السَاعَادِي؛ انْتِي كُنْتِي هَتْمُوتِي مِنِ البَرْدِ يا وِلْدَاه".

مَرَّتْ فترة من الصمت، ظننتها لم تسمعني، فصرفت النظر عن تَلَقِّي أي رد على تساؤلي السمج الذي ندمت عليه.. بدون

obeikan.com

توقع تكلمت (سعدية)، تكلمت ببطء، كان صوتها واهنًا ولكنها كانت تضغط على كلماتها بإصرار.. وهاأنذا أحكي على لسانها بتصرف...

"يقتحم الريح (المضيفة)؛ نافذًا عبر فُرُجات الباب والنوافذ المتآكلة كولولة النائحات، كعواء الكلاب الجائعة، كتدفق المياه في الأرض (الشراقي). وعندما تهدأ الريح العاتية وتنزاح أصواتها المخيفة، تضرب أذني (خرخشة) ورق شجرة (السَّرْوْ) الكبيرة التي على شاطئ الترعة. وتتأرجح شعلة (اللمبة الصفيح) في إعياء؛ مما جعل أشعتها الباهتة لا تقوى على الوصول إلى أركان (المضيفة) الواسعة، وتصطدم فلولها بالحوائط السوداء. تتسمر نظراتي عند ركن مظلم. ينتابني فزع مزلزل. يختلج قلبي بشدة وتهمر دموعي. أصابتني رعدة البرد؛ فرحت أضم أطراف ثوبي حول جسدي، ورغم أن ذلك كان غير مجديًا؛ فقد ظللت أكرر المحاولة.. وأنظر إليه وهو جالسًا أمامي غارقًا في كومة من الأحذية القديمة وقطع المطاط، وأمامه (السندان)، و(الشاكوش)، و(المقص)، و(المسامير). كان نور (اللمبة) الباهت ينسكب على لحيته الكثة الغبراء، على عينيه قبيحتا النظرات على فمه الكبير الذي تملؤه أسنان صخرية شرسة كأنياب كلب

مسعور. استرعي انتباهي بريق (المسامير) علي ضوء اللمبة الخابي فقلت في نفسي:

_ "بِتُبْرُقْ زَىّ الحَاجَاتِ الْجِدِيدَة؛ قَلِيلْ لَمَّا بَشُوفْ حَاجَاتْ جِدِيدَة".

تشبثت نظراتي بلحيته، هالني أنها بدت لي ككتلة سوداء قاتمة .. وعدت أسترجع:

_ "مِنْ يُومْ ما خَدْنِي مِنْ بِيتَ أَبُويَا وَآنِي فِي وِسْطِ الصُّرَمْ وِالْخِرَقِ الْقَدِيمَة؛ خِرَقْ مِتْلَوَّنَة بْأَلْوَانِ الْوَرْنِيشْ وِالسَّبْغَة السُّودَا وِالْحَمْرَا؛ وْبُقَعْ كِتِيرَة؛ أَشْكَالْ وِأَلْوَانْ؛ الصُّرَمِ الْقَدِيمَة وِالْخِرَقِ الّلي بِيْخَلّيِنِي أَدَوَّرْ عَلِيهَا فِي أَكْوَامِ السّبَاخْ وِفِي السّكَكْ". تؤلمني ابتسامته الساخرة، التي فضحتها لمعة أسنانه رغم ضوء اللمبة الواهن.. وأشعر بوطأة البرد، يرتجف جسدي، أجذب أطراف جلبابي حوله بقوة، فأسمع صوت تمزيق، أرفع يدي في الحال، وأحدث نفسي وأنا أنظر إلى موضع التمزق:

_ "كان نُصّ عُمْرِى لَمَّا ادَّتْهُولِي السِّتْ الطَّيِّبَة في كَفْرَ أبوعلي الله يزِيدْهَا مِنْ نَعِيمُه". انتفض جسدي على إثر انسلال أناملي بين طيات الجلباب؛ رفعت (ياقته)؛ ولويت عنقي نحو كتفي -وأنا

أمُطُّ شفتي السفلى- ثم جَذَبْتُهَا أحاول أن أري لونه عندما كان جديدًا تحتها؛ وقلت بحسرة:

_ "فَاكْرَه يُومْ مَلِبسْتُو أَوَّلْ مَرَّة؛ كَانْ قَلْبِي بْيُرْقُصْ، وِكُنْتْ بَاغَنِّي أَغَانِي كْتِيرَة، رَاحَتْ عَنْ بَالِي، كَانَتْ مَضْيَفِة كَفْرَ أبوعلي نِضِيفَة؛ مَفْرُوشَة بْحُصْرْ بِيضَا بْتِلْمَعْ، شَبَابِيكْهَا مَحْبُوكَة، وْبَابْهَا مَتِينْ، وِكَانْ نُورِ اللَّمْبَة نِمْرَة خَمْسَة بِيْلَعْلَطْ".. منذ ثلاثة ليال ضحك الإسكافي عندما انتبه إلي بطني الكبيرة؛ فتح فمه الواسع الذي بدا كجحر عميق، تطل منه أنياب وأسنان حادة، ظننت أنه سينقض عَلَيَّ لينهشني؛ وقال من خلال ضحكاته المجنونة:

_ "خُدِي يا سعدية ابْلَعِي دِيّ". وأعطاني ما يشبه (العجينة)، مُضْغَة سوداء، فظيعة الرائحة، هممت بقذفها بعيدًا، ولكنه رفع يده عاليًا ليهوي بها على رأسي، فقذفتها في جوفي بسرعة، قبل أن تحطمني يده الحجرية، وتذكرت والحزن يعتصر قلبي:

_ "لِيلِةِ امْبَارِحْ، مَدّ الشِّيطَانْ إِيدُو جُوَّايا وْخَدْ رُوحِي، وْرَمَاهَا هْنَاكْ فِي رُكْنِ الْمَضْيَفَة المِضَلَّمْ". وانتبهت على صوته المرعب:

_ "رُوحِي هَاتِي رِغِيفِينْ وِشْوَيّة طَبِيخْ؛ قَبْلِ مَالنَّاسْ تِنَامْ". وباغتتني قبضته الحجرية بضربة على أم رأسي. وكان رد فعلي الوحيد أني

رحت أنظر إلى جسده الضخم، وإلى صدره العريض -الذي تمنيت لو أمزقه بأظافري- وإلى ذراعيه المفتولين، وقد تفتقت عنهما المزق. تصورته وحشًا سيفترسني، خفت منه، التجأت بنظراتي إلى الركن المظلم، وتذكرت ما قالته المرأة الطيبة من كفر أبوعلي:

_ "هيِشْتِغِلْ جُوزِكْ مَعَ وْلادِي فِي الأرْضْ، هتْكُونِي صَاحْبِة بِيتْ، حَقَعَّدِكُوا فِي الْبِيتِ الوَرَّانِي". ولَمَّا أبلغته رفض بشدة، وضربني بعنف قائلًا:

_ "مِشْ عَايِزِ اسْمَعِ الْكَلامْ دَا تَانِي، دِي مِهْنِتِي وْمَعْرَفْشِي غِيرْهَا".. ازدادت شراسة البرد، وانتابتني قشعريرة أليمة، ورحت أنظر إلى الأحذية المكومة بجواره، الأحذية البالية التي يبدو أنني قد خُلِقْتُ لجمعها ولتسول اللقمة، هائمة على وجهى في بلاد الله:

_ "العِيَالْ بِيفْتِكْرُوا إِنِّنَا بنلم الصُّرَمْ عَشَانْ نَاكُلْهَا، مَفِيشْ إِلَّا الْعِيَالْ، كُبَارْ بِيسْتَهْزَئُوا بِينَا، وِصْغَارْ بِيْخَافُوا مِنْ دِقْنُه المِنَعْكَشَة زَىّ النِّجِيلْ، السُّودَة زَىّ لِيلَة مِنْ لَيَالِي آخِرِ الشَّهْرْ، كُنْتِ بَاحْزَنْ لَمَّا نْسِيبِ البَلَدْ لِبَلَدْ تَانْيَة، عَشَانْ هآسِي مِنْ مُعَاكْسِةِ الْعِيَالْ بِتُوعْ البَلَدِ الِّلي هَلِّينَا عَلِيهَا، بَعْدِ مَالْعِيَالْ بِتُوعِ الْبَلَدِ الِّلي فُتْنَاهَا شِبْعُوا مُعَاكْسَة، وِكُنْتْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ بَفْرَحْ عَشَانْ حَأَقَفْ قُدَّامِ ابْوَابْ جِدِيدَة".. عاد يزمجر مجددًا:

_ "يا بِنْتِ الْكَلْبِ قُومِي قَبْلِ مَالنَّاسْ تِنَامْ". قلت في نفسي:

_ "مَرُحْتِشْ بِعِيدْ، مَاهِي عِيشِة كِلابِ الِّلي آنِي عَايْشَاهَا مْعَاكْ". ولَمَّا لم يجد أي استجابة لزمجرته ؛ قال وهو يرفع قبضته مهددًا:

_ "يا بنت الجَّزْمَة قُومِي مِنْ وِشِّي قَبْلِ ما اكسر عَضْمِكْ". قلت وأنا أغالب البكاء:

_ "مانِي صَحْ زَيّ الجَّزْمَة الْقَدِيمَة الْمَرْمِيَّة فِي أَرْضَ الله الْوَاسْعَة". انتابني شعورًا بالخوف لم أعهده من قبل، وقلت في نفسي متعجبة:

_ "آنِي اُمّ قَلْبِ مَيّتْ أَخَافْ؟ آنِي الِّلي عِشْتِي مْعَاهْ إِنّي أَهِيمْ وَرَاهْ فِي الْبَرَارِي وْفِي السِّكَكْ وْعَلَي شْطُوطْ التِّرَعْ؛ تِشِيلْنَا بَلَدْ وِتْحُطِّنَا بَلَدْ". وصرخ في أعماقي صوت حزين:

_ "لَوْ كَانْ لِيَّه وَلَدْ بِآنِسْ وِحْدِتِي، لَوْ كَانْ لِيَّه بِيتْ بِتَاوِينِي وْبِحْمِينِي مِنِ الْخُوفْ". تشجعت وقلت بحذر وأنا أبتسم ابتسامة عديمة المعنى:

_ "بَاقُولْ". انتفض جسده الضخم قبل أن يصيح قائلاً:

ـ "لمَّا انْتِي عَايْزَة تْقُولِي حَاجَة؛ مَقُولْتِيهَاشْ لِيهْ وِخَلَّصْتِينَا؛ عَشَانْ تِرُوحِي زَىّ مَقُلْتِلِكْ؛ بِدِّكْ تِقُولِي إِيهْ يَا بِنْتِ الْكَلْبْ".

ـ "إِذَا كَانْ رَبِّنَا يْتُوبْ عَلِينَا مِنِ الشُّغْلانَة دِيّ".

ـ "تانِي حَنِرْجَعْ لِلْحَدُّوتَة بْتَاعْتِكْ؛ يا وْلِيَّة بَلاشْ جِنَانْ". تابعت بتوسل:

ـ "اعْمَلْ مَعْرُوفْ؛ نِرُوحْ عَنْدِ السِّتّ بْتَاعِةْ كَفْرَ أبُوعَلِي؛ يَعْنِي عَجْبَاكْ الْعِيشَة الشِّيطَانِي دِيّ".

ـ "أَيْوَا عَجْبَانِي ؛ مِشْ بِنَاكُلْ اللُّقْمَة وِاحْنَا مِسْتِرَيَّحِينْ؛ بِيِيجِي العِشَا مَيْخَلِّلي حَدْ مِنْ غِيرْ عَشَا؛ انْتِي غَرَضِكْ تِهِدِّي حِيلِي فِي الْفِلاحَة". قلت وأنا أود الإطباق على عنقه:

ـ "يَا رَاجِلْ دَا زِنْدَكْ مِفَتَّقِ الْهُدُومْ؛ لُقْمِةْ إِيهْ الِّلي طُولْ عُمْرِنَا بْنَاكُلْهَا مِنْ قُدَّامْ الإبْوَابْ زَيِّ الْكِلابْ". توقعت انفجاره؛ ولكنه قال بليونة غريبة:

ـ "يَا شِيخَة اعْقَلِي احْنَا كِدَه كْوَيِّسِينْ؛ وِدِي كَمَانْ صَنْعِةَ ابُويَا وْجِدِّي لا يُمْكِنَ اسِيبْهَا". انتهزت الفرصة التي لا تتكرر إلا نادرا وقلت باستكانة:

_ "اعْمَلْ مَعْرُوفْ ؛ كِفَايَة بَهْدَلَة". قال وهو يجز على أسنانه:

_ "لا يُمْكِنَ اسِيبْ صَنْعِةْ جُدُودِي وَارُوحْ للشَّقَى". قلت يائسة:

_ "مَفِيشْ فَايْدَة فِيكْ؛ أَصْلَكْ خَدْتْ عَلَى التَّمْبَلَة؛ انْتَ مِشْ عَايِزْ خِلْفَة ؛ انْتَ مَعَنْدَكْشِي صَنْفِ الإحْسَاسْ؛ عَايْزَة يْكُونْ لِيَّه بِيتْ يا عديم الْمَوْطَنْ؛ نَاكُلْ لُقْمِتْنَا مِنْ عَرَقْ جِبِينَّا يَا شَحَّاتْ؛ حَدّ يْجِيلُه الْخِيرْ ويُرْفُضُه". بدون أن يتحرك لسانه؛ أطبق بيديه على عنقي وأخذ يضغط ويضغط؛ ثم رفع يديه عندما تَدَلَّى لساني. ودفعني في صدري بقوة؛ لأقع على ظهري؛ تستند مؤخرة رأسي على (الصُّرَم) القديمة؛ ورِجْلِيَّ ممدودة في وجهه؛ وغبت عن الوعي.. ولما أفقت؛ أخذت أصرخ في وجهه؛ أكيل له كل ما أعرف من الشتائم؛ فقام وفتح الباب ثم انقض عليَّ -كالثور الهائج- وحملني بيديه الاثنتين من إبطيَّ جاعلاً وجهي تجاه الباب؛ ثم دفعني من الخلف دفعة قوية؛ قذفتني خارج (المضيفة) منكفئة على وجهي في الوحل...

نَهَضْتُ من رقدتي؛ ملطخة بالوحل؛ وأرتجف بشدة .. مشيت أترنَّح؛ في الظلام الحالك؛ أنقل رِجْلَيَّ بصعوبة وبحذر؛ في الأرض الموحلة . كل شيء حولي كان باردًا؛ الأرض الموحلة، الماء، الريح. وبكيت؛ بكيت كما لم أبكِ من قبل. أحسست أن الدنيا تواسيني؛

بدوي الريح ؛ وبنباح الكلاب.. مررت بجوار كلب ضال متكور على نفسه بجوار الجدار ؛ شعرت بالألفة مع هذا التعيس؛ كلانا ضال، هائم على وجهه، يعاني الوحدة والتشرد، ومطاردة الأطفال.. وعلى أوّل باب صادفني؛ دققت على استحياء. مرت عدة دقائق كانت أطول من هذه الليلة السوداء؛ شعرت خلالها أني عارية؛ مجردة من كل ما يستر جسدي ؛ وقلت في نفسي :

_ "مَعْ إنّ الوَقْفَة دِي مِشْ غَرِيبَة عَلَيَّ".. سمعت صوتًا ناعمًا رقيقًا:

_ "مِينِ الَّلي بَرَّه". أجبت بصوت خفيض:

_ "مِرَاتْ الاسْكَافِي؛ حَاجَة نِتْعَشَّى بِيهَا رِبِّنَا يْخَلِّليكُوا".

بعد قليل فُتِحَ الباب، ورأيت أمامي طفلاً يحمل ما جادت به أمه؛ وقبل أن آخذ الحسنة؛ احتضنته بقوة، وكنت أغمض عينيَّ على ذكري عزيزة؛ ترقد هناك، في الركن المظلم . صرخ الطفل مذعورًا يستنجد بأمه؛ فتركته وغادرت المكان وأنا أترنَّح. كانت الدموع تسيل من عيني بغزارة؛ وكنت أرتعد بشدة.. واندلع لهيب غشى القرية النائمة. وترنَّحت نظراتي؛ وشَرَدَتْ نحو بيوت كالقبور. قبور شواهدها أحذية بالية. كانت الريح تلسع ظهري

بقسوة. وكانت السماء تبكي بدموع باردة.. ارتميت أمام أحد الأبواب لاهثة. وحاولت أن أسترد أنفاسي. وكنت أجمع أطراف ثوبي على جسدي لاتِّقَاء لسعات الريح الباردة؛ بينما تهب رائحة الدفء من الداخل مالئة خياشيمي. وكان هناك وراء الباب طفل يصرخ، تمنيت لو أحتضنه وأهدهده بكل الحنان المكتوم في صدري، وصك أذني صوت أمه:

- "اسْكُتَ احْسَنَ أوَدّيكْ لِلإسْكَافِي عَشَانْ يَاكْلَكْ".

اندلع اللهب من جديد؛ وسطع نورًا شديدًا -كأن نهارًا قد بزغ- وسمعت دوي انفجارًا عظيمًا؛ ارْتَطَمْتُ -من شدته- على الأرض منكفئة على وجهي؛ يملأ الماء المشبع بالطين فمي.. تحوَّل الماء المشبع بالطين إلى بركة عميقة؛ كنت (أغطس) فيها (وأقب). تيقنت أنني أشرف على الموت غرقًا. وفي إحدى مرات الطفو؛ رأيت على شاطئ البركة رجلاً وجهه كـ(اللبن الحليب)؛ يرتدي جلبابًا أبيضًا؛ معه لفافة بيضاء؛ قال لي آمِرًا:

_ "رُوحِي كَفْرَ أبُوعَلِي لْوَحْدِكْ". قلت باكية:

_ "عَايْزَة ابْنِي". وفكرت أن أقول له:

_ "لَكِنِ السِّتّ الطَّيِّبَة مِحْتَاجَة لْرَاجِلْ يِشْتِغِلْ فِي الْغِيطْ، يَعْنِي مَلِيشْ فَايْدَة".

_ "رُوحِي واشْتِغْلِي مَعَاهَا فِي الْبِيتْ، وآدِي ابْنِكْ، جِبْتُه مِن التُّرْعَة، رَمَاه الإسْكَافِي بَعْدِمَا حَدَفِكْ بَرَّة الْمَضْيَفَة".

ارتعبت منه -بعدما أجابني على ما دار برأسي- ولكني أخذت منه وليدي، وضممته إلى صدري بحنان.. انقلبت سياط الريح الباردة إلى ألسنة من الدفء. وانبلج الضوء الباهر مرة أخري. ورأيت على البعد بيتًا جميلاً، كانت تناديني من داخله أصوات ملائكية. حملت وليدي وقمت ميممة وجهي شطره قبل أن يخبو الضوء، ولكني شعرت أن ساقيَّ لم تقوى على حملي. أحسست بألم يمزق صدري. تراخى جسدي. كنت أضم وليدي بقوة، وأنظر إلى البيت، وأحاول مواصلة السير، أحاول قهر التَّوَجُّع .. وأخيراً - بعد جهد مضنٍ- وصلت، ولما دخلت في قلب النور الساطع، وجدت نارًا تبث الدفء في فراش ناعم، اضطجعت عليه بسرعة. وكان جسدي قد غُطِّيَ بغطاء من الحرير الأخضر. وأخذت أقبل طفلي النائم في حضني يغمرني سرور جارف.. وغلبني النعاس".

شَـدَّ انتباهي ترنحها، تباطىء خطواتها، فأخذت حذري، لأدركها قبل أن تسقط. وصدق حدسي، فقد رأيتها تهوى، لم أفلح

في منعها؛ غلبني جسدها المتثاقل، لم أقوى على حمله، هوت رغمًا عني على الأرض. بعد عدة محاولات فاشلة لمساعدتها على النهوض، جلست بجوارها.. كانت تهذي بكلمات غير مفهومة، تَوَقَّفَتْ عن الهذيان، بدأت أنفاسها في التلاشي، أغْمَضْتُ عيناها؛ وتلوت الشهادتين.

obeikan.com

"الغارة"

يتفادى الوقوع في (خندق) من (الخنادق) التي تتوسط الميدان -الذي يجتازه جريًا مع الناس المذعورين- حاملاً على كتفه (صُرَّة)؛ متخبطًا في جلبابه، يَنِزُّ العرق من جسده بغزارة.. وبينما كان يتهيأ لمواصلة الجري، يخترق أذنيه صوت حاد:

_ "يا شاطر". لم يأبه لهذا الصوت؛ ويحاول مواصلة الجري.. تسقط (الصُّرَّة) على الأرض -بدفعة قوية من أحدهم- فيرتمي بجوارها باكيًا.. يمسح وجهه بطرف جلبابه، ليزيل عن عينيه غشاوة من أثر الدموع المختلطة بحبات العرق المنحدر من جبهته، ويحدث نفسه:

_ "مِشِيتْ كتير؛ والشمس قرَّبت تغيب، باين عليَّ تُهْتْ عن المحطة".. يسمع الصوت من جديد:

_ "يا شاطر".. يتكرر بإلحاح:

_ "يا شاطر.. يا شاطر".. يراها هناك، عن يساره، داخل دكان ضيق. وقبل أن يتبين ملامحها؛ تبادره:

_ "تعال .. تعال" ينتابه الخوف. يَهِمُّ بحمل (صُرَّتُه) ليجري بعيدًا، ولكن إلحاحها يُفتر هِمَّتُه، فيذهب إليها، يسبقه صوته خافتًا متقطعًا:

_ "والنبي يا ست محطة أوتوبيسات الأرياف أروح لها منين".. تفاجئه بجذبه من (ياقة) جلبابه البلدي عبر(البنك) الذي يفصلهما، ثم تستغرق في الضحك. يحاول الإفلات من قبضتها، دون جدوى. تقول بعد توقفها عن الضحك:

_ "انت منين .. يا حبيبي".. ينظر إلى وجهها في صمت، غير قادر على النطق، تصدمه حمرة شفتيها القانية. يقاوم الشعور بالتقيؤ بطأطأة رأسه ناظرا إلى قدميه.. تجذب (الصُّرَّة) من فوق كتفه، تضعها على (البنك)، وتقول وهي تَهُمُّ بِفَكِّهَا:

_ "دِي تقيلة يا حبيبي، استِرَيَّح وشم نَفَسَكْ، إيه اللي معاك؟". كالذي أصابه المس، بسرعة البرق، يتشبث بعقدة (الصُّرَّة)،

ولكنها تتغلب على ضعفه بقذف يداه بعيدًا، ثم تحيط عنقه بذراعها، وتقلب محتويات (صُرَّتُه) باليد الخالية. ينعقد لسانه، وينظر ذاهلاً إلي ذراعين عاريين بَضَّيْن إلي صدر مُتَهَدِّل على (البنك) تكسوه خطوط سوداء صنعها العرق والتراب. وينصت إلى كلمات تتخللها ضحكات صاخبة:

_ "إيه عيش وطعمية وحلاوة وصابون ومكرونة، وكمان منديل بؤبة، لميين؟ لأمك؟".

يجول بخاطره ما دار مساء أمس بين أمه وجارهم الذي ركب الشاحنة مع محصوله:

_ "والنبي يا أبو محمود خد بالك من ابني، راجل البيت، وابقي هاتو معاك". ويحدث نفسه، مستعيدًا ما حدث له اليوم:

_ "لَمَّا جبرنا بدري، قبل الضُّهْر، دَوَّرْت على عمي أبو محمود، لقيتو رَوَّح وسابني لوحدي في سوق الخضار في البندر وهو عارف إن دي أول مرة آجي فيها لوحدي، ساعتها مهمِّنيش، سألت على المحطة، والفلوس في جيبي، والحاجات اللي اشتريتها مَصْرورَة في عمامة المرحوم أبويا، اللي أمي حطتها على راسي عشان تحميها من برد الليل الطويل ".

يؤلمه تثاقل ذراع المرأة حول عنقه، فيتخلص منه بالتراجع خطوة إلى الخلف.. يبدد صمتهما ضجيج مفاجئ. يتلفت فزعًا -وقد هَشَّم الخوف قلبه- الكل يجري، رجالاً ونساءً، بعضهم يجر أطفالاً، وآخرون يحملون رضعًا.. يبرز من بين المذعورين رجلاً -تتعلق بزراعه امرأة ثوبها ينتهي عند أسفل أردافها مباشرة- يقبل على الدكان صارخًا:

_ "مَسِمِعْتِيشْ صفارة الإنذار؟ اقفلي بسرعة".. تقول المرأة وعيناها شاخصتين إلى أعلى:

_ "يا سيدي".

ينقلب الرجل وامرأته على أعقابهما ليبتلعهما الزحام. وبدون أي تفكير، يلتقط (صُرَّتُه) المفتوحة من فوق (البنك)، يضمها إلى صدره، ويجري خلف الرجل وامرأته.

في وسط الجماهير الزاحفة، ينطلق صوته مُتَهَدِّجًا:

_ "فين المحطة.. فين المحطة"..

لم يعره أحد اهتمامًا. وتنتشر الغشاوة على عينيه من جديد، فيرى الناس كتلة صماء تسد الشارع. يتملكه الفزع. يزعق

بكل ما أوتي من قوة:

_ "يا عم، يا عم، فين المحطة".

يتلاشى زعيقه، يبتلعه الضجيج، يفكر في العودة إلى دكان المرأة. يتوقف متشبثًا بمكانه، ويستدير راجعًا يقاوم الجماهير الزاحفة.. يجد الدكان مغلقًا، يشهق شهقة قوية، ويبكي بحرقة. ويترك جسده للجماهير لتسوقه إلى حيث تشاء.. تهدأ حركة السيقان. وتتناثر الأجساد المكدسة. وتتناهى إلى سمعه أصوات مرهقة:

_ "أمان.. أمان".

يتوقف ليسترد أنفاسه. تشعره النسمات الرطبة التي هَفَّتْ وجهه ببعض الراحة. يحاول تلمس طريقه إلى المحطة. ويحدث نفسه وهو يجر قدماه جرًا:

_ "لا بُدْ أنّ المحطة تْكُونْ في آخر البندر؛ في الخلا؛ بَعْدِ الحارة دِي"..

بدون توقع، يسمع لغطًا شديدًا. كانوا جماعة من الأولاد، مكدسين تحت نافذة تسكب عليهم نورًا أزرقًا، يراقبهم بحذر،

يمشي ببطء، (مقدمًا رِجْلاً ومؤخرًا الأخرى). تتلاحق أنفاسه. تسد حلقه غُصة كبيرة. يتسلل بجوار الحائط، حاملاً (صُرَّتُه) على كتفه.. يطوّق رأسه -فجأة- صياح منتظم، يخترق قلبه وينفذ إلى الفضاء مبللاً بدمه على دقات منتظمة سريعة كدقات قلب مريض:

_ "الفلاح يا فلاح .. الفلاح يا فلاح".

يحاول الفرار، ولكنهم حاصروه في دائرة صنعوها بأجسادهم، راح يتخبط فيها كدجاجة مذبوحة.. يندفع إليه غلام طويل قائلاً:

_ "الفلاح أخرس".. ثم يزعق مُلَوِّحًا بيده:

_ "انتو يا فلاحين جَيِّينْ تقرفونا، يا بني روح امشي ورا الحمار، إيه القرف دَهْ ".

ويجذب (الصُّرَّة) من بين يديه، يقذفها إلى أعلي، ثم يلتقطها، ويتابع مقهقهًا:

_ "نِفِكْ..ونشوف ".. يصرخ متوسلاً :

_ "لأ..لأ ".. تطغي على توسلاته صرخات هستيرية:

_ "فُكْ .. فُكْ .. فُكْ ".. يقف ساكنًا مطأطأ الرأس فاقدًا الأمل في نجاة (صُرَّتُه). وتتساقط دموعه على صدره.. ينتشله صوت آمر -تناهى إلى سمعه- آتيًا من خلفه:

_ "اسكت يا ولد أنت وهُوَّا".

يرفع رأسه محدقًا. كانت امرأة مقبلة تمشي بتثاقل. عرف ذلك من صوت وقع قدميها البطيء. يفر الأولاد. ويبقى الغلام الطويل.. يجري إلى محتويات (صُرَّتُه) المبعثرة. يتحسس في (العتمة). يلملم ما يعثر عليه، بينما يصك أذنيه صوت وقع قدميها على الأرض الحجرية.. عندما تمر عبر الشعاع الأزرق أسفل النافذة، يرى رأسها وبطنها وذراعاها العاريان. ينتفض مذعورًا وقد هشم الرعب قلبه، ويحدث نفسه:

_ "دي صاحبة الدكان".. يَهمُّ بالفرار، لم تطاوعه قدماه، ويسمع صوتها:

_ "ميين ده يا فوفو". يرد الغلام:

_ "ده الفلاح".. تضرب صدرها صارخة:

_ "انت؟"... لم يرد، أخرسه الرعب. تقطع الصمت قائلة:

_ "مالكم وماله يا فوفو".. يجيبها الغلام:

_ "مش أنا يا ماما".. يحدث نفسه مرعوبًا:

_ "دا طلع ابنها".. تربت علي ظهره قائلة:

_ "أمك قلبها حجر".. ينتفض بشدة، ويقول:

_ "أمي مش كده، آنِي الِّلي جيت ابيع الخضار، عشان آنِي راجل البيت".. تنطلق (الصفارة)، فينقلب سكون الحارة إلى ضجيج هائل، تبرز من خلاله أصوات متلاحقة:

_"الغارة .. الغارة".. تجذب المرأة الغلامين نحو الباب المقابل للنافذة التي تسكب نورًا أزرقا، تجتازه مسرعة، ثم توصده خلفها بإحكام...

يرعبه الظلام الدامس.. ينتشله من رعبه صوت المرأة المنطلق بجواره: "محدِّشْ يتحرَّك من مكانه".. وكانت الشمعة التي أضاءتها قد هَدَّأَتْ من روعه.. تشير إلى (كنبة) بجوار الباب، وتقول وهي متجهة إلى الداخل:

_"اقعدوا، واقفين ليه، متخافوش الضرب بعيد".. يرد بكلمات لم تغادر شفتيه:

_ "إزَّايْ يكون الضرب بعيد وهُوَّا فوق راسِي، والحيطان بِتِهْتِزْ".. يسمع صوتها من وراء الحائط:

_ "هجيب ليكوا لقمة، انتوا يا حبة عيني زمانكوا هتموتوا من الجوع ".. يقول مندفعًا :

_ "مش عايز آكل".. ويغلبه البكاء .. تضع بينهما طبقًا به أرزًا يتصاعد منه البخار، مغروسًا به ملعقتان. تربت على ظهره وتقول وهي تهم بالجلوس على كرسي صغير قبالة (الكنبة):

_ "متخافشي، الضرب بين الجيوش وبعضها ".. يقول من خلال بكائه:

_ "أنا عايز أروَّح".. تنهره بقسوة:

_ "تروَّح فين يا مجنون دلوقتي".. يجلس منكمشًا بوضع رأسه بين ركبتيه. يحتويه رعب قاتل. ويحدث نفسه:

_ "آنِي همُوتْ هِنَا؛ ومِشْ هشُوف أمِّي وِاخْواتِي".

يقول ابنها والأرز يملأ شدقيه:

_ "كُلْ".. وتقول أمه:

_ "كُلْ، كُلْ".. فيأكل رغم الدوى المتزايد. تتوقف يده بعد عدة ملاعق. يرفع عيناه من الطبق، فتستطدم نظراته بالمرأة الجالسة أمامه. يلتفت إلى ابنها، يجده ناظرًا إليه، هُيِّأَ له أنه يصرخ فيه صراخًا مكتومًا، فيلتجأ إلى أمه -وقد هاله الصراخ- ليقول لها -بنظراته- أن ابنها يظن به الظنون.. وفجأة تخترق الجدار قذيفة، حمله انفجارها إلى غيبوبة طويلة...

يتحسس جسده. يحرك ذراعاه وقدماه، لم يصدق أنه قد نجا، لا يعلم ما انقضى من الزمن. كانوا مبعثرين في زوايا الحجرة، مختلطين بأثاثها المتناثر؛ بينما تتراقص زبالة الشمعة بشدة.. يسمع أنينا خافتًا. يراه بجواره، وعلى وجهه آثار ابتسامة، يقول وهو يرفع عنه الحطام:

_ "مَفِيشْ هِنَا جيش!".. يتوقف عن الأنين قائلاً :

_ "انت أهبل يا فلاح".. يجلس بجواره، يتسلل إليه الشعور بالألم. فيكتشف جرحًا غائرًا في ساقه.. يشد انتباهه وجه آخر؛

وجه ساكن صارم متصلب كوجه دمية بيضاء لا حياة فيها. عيناها متسعتان. يداها مرتميتان بجوارها على الأرض. وعندما تلتقي يده بجسدها، يجده باردًا كالثلج. يرتعد بشدة. وتتساقط دموعه بغزارة. وينظر إلى ابنها الذي لا يزال يئن. ينتقل إليه، ثم يربت على رأسه بحنان بالغ، كأحد إخوته الذي يتحرق شوقًا إليهم.

obeikan.com

obeikan.com

الفهرس:

الموعد ٧

القطار ٢٧

قتلت الحشرة.....٣٥

العائد إلى الحياة..... ٤٧

يومه الأول في مدرسة البندر..... ٦٧

زوجة الإسكافي..... ٨٩

الغارة..... ١٠٣

obeikan.com

obeikan.com